

عبد الكريم الخطابي
وتحرير المغرب الكبير (1921-2021)

عبد الكريم الخطابي
وتحرير المغرب الكبير (1921-2021)

ترجمة : سناء بوزيدة

الفهرس

- أنوال، ملحمة عبد الكريم
ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي (1921-1926) ، 9
- شخصية عبد الكريم الخطابي في منظور زماننا 13
- الأمير عبد الكريم الخطابي واتحاد الشعوب من أجل تحرير البلدان المغاربية
إدراج السياق في منظور متوسط المدى (1921-1954) 23
- سيرورة اندلاع المرحلة الثانية من حرب الريف : النزاع الفرنسي-الريفي 31
- عبد الكريم وتحرير المغرب في خمسينيات القرن العشرين 43
- الكتابات التاريخية المغربية عن المقاومة الريفية للاحتلال الاستعماري (1921-1926) 67
- مسار محمد بن عبد الكريم الخطابي المستعصي على الفهم 85
- هل كان محمد بن عبد الكريم الخطابي مناهضا لاستقلال المغرب ؟ 91

ترجمة من الفرنسية إلى العربية : سناء بوزيدة

أنوال، ملحمة عبد الكريم¹

ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي (1921-1926)،

ثورة بلا غد لكن لها مستقبلا!

بقلم: المصطفى بوعزيز

ترجمة: سناء بوزيدة

يحتفل المغرب في كل سنة بذكرى معركة أنوال، معركة 21 جويلية 1921، التي نحر فيها محمد بن عبد الكريم الخطابي الجيش الاستعماري الإسباني الكبير الذي كان يقوده الجنرال سيلفستر. وهي الهزيمة التي أثارت إحساسا بالكارثة في الأوساط العسكرية والسياسية الإسبانية، وشعورا بالفخر والاعتزاز في الريف المغربي حيث نجم بطل ذو أهمية عالمية ليدخل التاريخ من بابه الواسع.

وكل احتفال، أبرز احتفال هذه السنة، مرة أخرى، اختلافا من حيث الطبيعة، بين الذاكرة الجمعية والذاكرة التاريخية². كان هناك نوع من حوار الطرشان بين المؤرخين وأفراد عائلة الخطابي، بين نشطاء الحراك³ وإيديولوجيي السلطة الرسمية. كان الاختلاف يدور منذ سنوات، فيما يتعلق بي خلال ندوة بالناظور، حول تقويم مساهمة الفقيه جرمان عياش بخصوص إعادة البناء التاريخي للملحمة الريفية⁴.

1. حُرر هذا النص بتاريخ جويلية 2001 تم تعديله في 2020.

2. NORA Pierre : Mémoire historique, in Encyclopédie « La nouvelle histoire ».

3. الحراك (أموسو بالأمازيغية) هو حركة احتجاجية بالريف (شمال المغرب) انطلقت في أكتوبر 2001. ويتعلق أساسا

بالسكان الريف في الحسيمة والناظور وبركان.

4. AYACHE Germain, La guerre du Rif. Ouvrage publié par Evelyne-Myriam Ayache, Paris, L'Harmattan, 1996, 257 p. – in Histoire et perspectives méditerranéennes / dir. par Jean-Paul Chagnollaud. (ملاحظة صاحب النص)

لم يكن هذا الاختلاف اختلافا عارضا، بل إنه نجم عن الالتقاء بين تطوّرين إيجابيين، التطور الأوّل عرفة البحث في العلوم الإنسانية بالمغرب، أما الآخر فتمثل في الامتلاك الجمعي لتاريخ البلاد. وإذا كانت الأحداث التي عرفها الريف مع بداية عشرينيات القرن العشرين معروفة على العموم، وإذا كان المغاربة يرون في شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي أحد أكبر أبطالهم، إلا أنّ هذا الاعتراف الوطني جاء، رغم ذلك، متأخرا، ولا زال اعترافا جزئيا. منذ عشرين سنة، لم يكن حضور عبد الكريم في الذاكرة الجمعية، إلاّ حضورا شبحيا، وهذا في الوقت الذي كان الوسط العلمي قد خصّص له ملتقى وطنيا⁵؛ وكان جرمان عيّاش قد قدّم في جامعة السوربون أطروحة دكتوراه دولة أخرج فيها بطل الريف من التصدّر الأسطوري ليدرجه ضمن الواقع التاريخي. ونذكر الآن سبب المرارة التي يحسّ بها الريفيون وخاصة عائلة عبد الكريم الخطابي. لكنّ هذا الإجحاف والرأب التاريخي في حقّهم قد تمّ ترميمه جزئيا. وإنه لمن اجب رجال السلطة أن يرفعوا كل حجر حتى يندرج هذا الماضي بشكل طبيعي في الذاكرة الجمعية. فالقنوات كثيرة: المدرسة ووسائل الإعلام والسينما ومؤسسة الخطابي،... إلخ.

فالتطوّر إذن هو تطوّر إيجابي، ويكفي للتأكّد من ذلك أن نلقي نظرة على الصحافة الوطنيّة لشهر جويلية لكي نقيس المتحوّل الحاصل على مستوى العقليات. لا شكّ أنه توجد مقاومات تفسّر ردود الفعل المفرطة من قبل الريفيين، هذه هي المعطاة الأولى. وتتمثل المعطاة الثانية في التقويم العلمي للمساهمة التي قدّمها جرمان عيّاش.

لقد كرّس هذا المؤرّخ المغربي أكثر من ثلاثين سنة لتنقية الكتابات حول تاريخ المغرب من العقلية الاستعمارية، وفي هذا المجال، فقد خصّص أكثر من ثلثي كتاباته لبناء موثوق لأحداث الريف. نتحدّث عن بناء، لأن الخطاب التاريخي هو تمثيل للماضي، يتم تصوّره وعرضه من قبل المؤرّخ الذي يكرّس، من أجل هذا الهدف، ثقافته ومهارته المنهجية.

امتاز جرمان عيّاش باهتمامه بابن عبد الكريم في وقت كان هذا الموضوع من قبيل الطّابو تقريبا. جرمان عيّاش هو أستاذ في الجامعة المغربية لم يتدبّد في جعل

5. Colloque international : Abdelkrim El Khattabi et la République du Rif, Sous la direction de Charles-André JULIEN et René GALLISSOT, éditions François Maspero, Paris, 1975.

حرب الريف الموضوع الأساسي لنشاطاته البحثية ولم يتوقف عن ترهين أطروحته التي ناقشها في 1978 وتطعيمها بمعطيات جديدة.

ماذا كانت النتيجة؟ مؤلف أوّل حول « مصدر حرب الريف » تم نشره من قبل السوربون ودار النشر المؤسسة المغربية للناشرين المجتمعين SMER في 1982، ومؤلف غير تام ظهر بعد وفاة جرمان عيَّاش (في أوت 1990) وأصدرته دار النشر L'Harmattan في 1996⁶. يقدّم لنا عيَّاش، في هذين المؤلفين، الرواية الأكثر إعدادا وتدقيقا لتاريخ حرب الريف. وهو يجسّد ببراعة منهجيّته مؤرّخا متبحّرا يفضّل الوثيقة المكتوبة ويستعمل المنطق السببي الذي يشتغل في الأجل القصير. تتمثّل قيمة هذه المقاربة في البناء الدقيق للواقعة التاريخية... لكن فقط عندما تسمح بذلك عملية التوثيق المؤكّدة. غير أنّ هذه المقاربة تقلّص الحقل التاريخي وتتجاهل إشكاليات هامة بفعل غياب وثائق مكتوبة مناسبة.

لهذا السبب، لم يسلم جرمان عيَّاش، أحد أكبر روّاد المدرسة التاريخية المغربية، من النقد الذي وجّهه أقرانه⁷ (العروي، باسكون، هارت، إلخ).

لكن الأهم هو الإثراء الذي قدّمه النقاش حول تاريخ المغرب.

مع الاتصال بالعلوم الاجتماعية، قام أتباع جرمان عيَّاش الذين يؤطرون كليات الآداب الأربع عشرة في المملكة بتوسيع حقل التساؤل التاريخي. ولم يعودوا يختلفون حول ضرورة المعالجة العلمية لـ « التقليد الشفهي »، واستخدام تقنيات التحريّ، أو الاستفادة من الإسهام الضخم الذي قدمته الأنثروبولوجيا التاريخية. وهذا يُعدّ تطوّرًا إيجابيا هاما يسمح، بل يتطلّب، تثمين الدراسات التاريخية المغربية. وهكذا تمّت إعادة النظر في إسهام جرمان عيَّاش في إطار حركة شاملة تميّز التحوّل الجاري في مجال البحث التاريخي. لكن، رغم الانتقادات المنهجية التي يمكن تقديمها لأبحاث جرمان فإنها تبقى أبحاثا ذات قيمة كبيرة، وتظلّ لخلفية والمرجع الأساسي المتعلّق بأحداث الريف.

من البديهي أنّ تاريخ حرب الريف لم يُكتب الكتابة النهائية. وإن إعادة النظر الدائمة هي من طبيعة البحث التاريخي لكن، وفي كل مرحلة، يراكم البحث التاريخي

6. *Op.cit.*

7. Laroui Abdellah, *L'histoire du Maghreb* (Introduction de la version arabe du livre), Ed. Centre Culturel Arabe, Casablanca 1984.

Pascon Paul, L'écrit et le parlé, in *Revue Abhat* N° 3/1983, texte traduit en arabe par Mostafa Bouaziz. HART David Montgomery, Ayache et la guerre du Rif, in *Revue Abhat* N°3/1983.

المعطيات الأكثر متانة من أخرى والتي تسمح بالخصوص للبحث التاريخي أن يُجدد طرائقه وإشكالياته.

بالعودة إلى الاختلاف الأولى، نقول إن جرمان عيَّاش قد أهمل، بالتأكيد، "التقليد الشفهي وهو ما ضيَّق من إشكالياته، ولكنه سرد سردا دقيقا دقة الساعاتي سيرورة المعارك (أوبران، إشاربان، إوري، أنوال) كانت هذه هي نقطة قوته. فقد فصل تفصيلا كيفية نشوء تقنية حرب العصابات في حرب التحرير ونسب مبتكرها إلى محمد بن عبد الكريم الخطابي، وكانت تلك علامة عبقريته. لقد بين جانب المصادفة من ناحية، وجانب البصيرة النافذة في نجاح الزيبي. وهذه هي أطروحته الأساسية. كما أكد أيضا أن بطل أنوال لم يكن حاضرا في المعركة الهامة الأولى، معركة أوبران؛ وهذه المعلومة تُعدّ، في الوقت الحالي، حقيقة تاريخية، ولكنها تكاد تُعدّ من قبيل «القدح» من وجهة نظر ذاكرة الريفيين.

قد يخطئ المؤرخ حتى إن اعتمد وثيقة مكتوبة بكن يجب تقديم الدليل على خطئه. إنَّ البطل لا يولد بطلا. إنه يصير بطلا. إن الصيرورة في التاريخ ليست قدرا محتما، بل إمكانية قد تساعد ظروف خاصة على تحقيقها. قد يكون بن عبد الكريم حضر معركة أوبران، وهو ما يبقى التحقق معه، لكن حتى إن لم يحضرها بن عبد الكريم، فإن هذا لا ينقص من شيء في بطولته الخارقة.

إنَّ التفاوت بين الذاكرة التاريخية والذاكرة الجمعية يسمح بتحديد القدرة التي يتوقَّر عليها مجتمع ما لإلقاء نظرة نقدية على ماضيه، واستيهاماته، وطابوهات، ومنه في الحقيقة على حاضره الذي يتوقَّر، كما يقول بحق سانت أوغستان، على أبعاد كثيرة، «حاضر الأشياء الماضية وحضور الأشياء الحاضرة وحضور الأشياء المستقبلية»⁸. وهكذا، فإنَّ ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي، التي أُخمدت في 1926 وبطلها المنفي، كانت ثورة بلا غد ولكن لها مستقبلا.

8. Saint Augustin : cité par Jacques LE GOFF in « Histoire et Mémoire », tome 1, éditions du Seuil, Paris 1977.

شخصية عبد الكريم الخطابي في منظور زماننا

بقلم: ماريا روزا دي مدارياثا

ترجمة: سناء بوزيدة

ولد الطفل المسمى محمد، والذي اشتهر عالميا باسم والده عبد الكريم، عام 1882 بأفادير بقرية تطل على خليج الحُسَيْمة، على ساحل البحر المتوسط بالمغرب المتواجد بمنطقة الآث يوسف أوغلي، إحدى القبائل أو العشائر الخمسة لبني ورياغل، أكبر قبيلة في الريف الأوسط وأكثرها اكتظاظاً بالسكان.

عبد الكريم لا ينتمي إلى عائلة من عائلات الشرفاء، أي من نسل الرسول أو الذين يُعتبرون كذلك، ولا من المرابطين أو الأولياء الصالحين، ولكن من عائلة تنتمي إلى ما كان يمكن تسميته بـ « النُّخبة المثقفة » نظرا إلى مستوى المعرفة والدراسة التي يفوق مستوى معظم الريفيين، وهو ما أكسبه لقب « الفقيه » الذي كان يمنحه هيبة عظيمة وسلطة أخلاقية كبيرة وسط مجتمعه. كان الفقيه عبد الكريم شديد التعلُّق بالتعليم الذي كان يعتبره أساسيا من أجل رفع المستوى الثقافي لشعبه. وكان يرى الفقيد عبد الكريم، عكس العديد من أفراد قبيلته، خاصة « قبائل الجبل » المعادية للعلاقات مع المسيحيين أو الأوروبيين عموما، كان يرى أن المساعدة الخارجية ضرورية لإخراج شعبه من تخلفه وجعله يتقدم.

كان الفقيه عبد الكريم يَعتبر أن مؤتمر الجزيرة الخضراء عام 1906، الذي كان يعترف بسيادة السلطان، كان يمنح لإسبانيا دورا رائدا في المنطقة الشمالية من المغرب. وهكذا، قد تقدر إسبانيا على تقديم مساهمة اقتصادية وتقنية مهمة لتقدّم الريف، خاصة وأن إسبانيا، التي أضعفتها هزائمها الاستعمارية عام 1898 في أمريكا - كوبا وبورتوريكو -

وفي آسيا - جزر الفيليبين - لم تكن قادرة على الخوض مغامرات استعمارية جديدة. ولكن كانت هذه الأخيرة، باعتبارها قوة أوروبية، تملك القدرة اللازمة للمساهمة في تحويل الهياكل القديمة للمغرب وتحديثها. ومن هذا المنطلق، اتخذ الفقيه عبد الكريم القرار المهم المتمثل في التعاون مع إسبانيا.

أولاً، أرسل ابنه محمد إلى فاس لتلقي تعليم متين في الشريعة الإسلامية. مكث ابنه هناك لمدة عامين، من 1902 إلى 1904، في جامعة القرويين المرموقة. بعد ذلك، أرسله إلى مليلية حيث درّس محمد من 1907 إلى 1913 اللغة العربية والقرآن في مدرسة ابتدائية (المدرسة الابتدائية الإسلامية) التي كان قد فتحها الإسبان لأبناء المغاربة المقيمين في البلاد. كان محمد يملك إيماناً راسخاً، بفوائد التعليم لتحرير شعبه، تماماً مثل والده، وهو ما دفعه إلى تولى مهمة التدريس بحماس وتفاني، كما يوضح هو نفسه ذلك فيما سَمَّاه بـ ذاكرة لاريونيون¹.

كرّس محمد بن عبد الكريم نفسه للصحافة كذلك علاوة على نشاطه التدريسي. كان يكتب من 1907 إلى 1915 عموداً يوميةً باللغة العربية على الصفحة الأولى من جريدة تليغرام الريف *Telegrama del Rif*، تناول فيه العديد من قضايا الساعة. وقد مكنته هذه التجربة في الصحافة من إكمال تدريبه السياسي واكتساب منظور أوسع للوضع الدولي.

اتسم تكوين محمد عبد الكريم بفضول فكري هائل دفعه إلى الرغبة في الاطلاع على كل ما يحدث في أوروبا والعالم. وقد اشترك في العديد من الصحف والمجلات وكان يتلقى أخرى من الأصدقاء. وعندما اقتحمت قوات الفيلق أفادير في 2 أكتوبر 1925، وجدوا ستمائة جنيه إسباني في منزل عبد الكريم قبل هدمه وإحراقه.

بتاريخ جوان 1910، تم تعيين محمد بن عبد الكريم أميناً ومترجماً فورياً لمكتب شؤون السكان الأصليين. وفي عام 1913، أصبح قاضي هذا المكتب وبعد بضعة أشهر قاضي القضاة بملييلية. ترك عندها منصبه التدريسي في ما كان يسمى بمدرسة السكان الأصليين، لأنه لم يتمكن من التوفيق بين كل هذه المهن في وقت واحد. خلال هذه الفترة حصل محمد بن عبد الكريم على العديد من الأوسمة على خدماته: تم تعيينه، في جانفي 1912، فارساً وتحصل على وسام إيزابيلا الكاثوليكية. في مارس من العام نفسه، حصل على وسام صليب الاستحقاق العسكري من الدرجة الأولى، بشارة بيضاء؛ وفي مارس 1913

1. عبد الكريم الخطابي، مذكرات لاريونيون، طبع في اللغتين العربية والفرنسية (الترجمة الفرنسية لثامي آزْمُوري)، ص 42 من النسخة الفرنسية.

حصل على صليب الاستحقاق العسكري من الدرجة الأولى، بشارة حمراء، وفي أكتوبر من العام نفسه، حصل على ميدالية إفريقيا.

وهكذا، استمر التعاون مع عائلة الخطابي، الذي بدأ قبل عام 1912، بعد توقيع معاهدة عام 1912.

تغير الوضع تماما بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى. إذ أدى عدم اليقين بشأن مستقبل منطقة المحمية، في حال هزيمة فرنسا في الحرب؛ أدى إلى تغيير موقف الفقيه عبد الكريم وابنه محمد تجاه إسبانيا. وهكذا، دون قتالها، لم يعودا مستعدين لدعمها كما كانا من قبل. كان دخول تركيا إلى الحرب إلى جانب ألمانيا في 31 أكتوبر 1914 حدثاً مهماً. وأثار العداء تجاه فرنسا، التي احتلت معظم المغرب، تعاطفاً مع ألمانيا، بطريقة غير مباشرة، حتى لو كانت الأخيرة، باعتبارها قوة أوروبية بالرغم من كل شيء، قد تطمح إلى استبدال فرنسا في المغرب إذا هُزمت هذه الأخيرة في يوم من الأيام. من ناحية أخرى، كانت تركيا دولة إسلامية يجب على جميع المسلمين مسانبتها في كفاحها ضد فرنسا التي كانت تضطهد المغرب.

وقد لفت دعم الفقيه الخطابي للقضية الألمانية-التركية انتباه سلطات صخرة الحسيمة التي نددت بسلوكه لمليبية. وهكذا، قامت هذه السلطات، من أجل معرفة نواياه ونوايا ابنه، بإرسال النقيب سيست، رئيس مكتب شؤون السكان الأصليين في الحسيمة، إلى مليبية ليستجوب شخصيا القاضي عبد الكريم. واعتُبرت التصريحات التي أدلى بها هذا الأخير للنقيب سيست خطيرة للغاية لأنه، في الوقت نفسه الذي كان يعترف فيه باحتلال إسبانيا للأراضي المحتلة بالفعل، كان يؤكد عزمه على معارضة تقدم القوات الإسبانية واحتلالها للأراضي التي كانت جزءا من منطقة المحمية المعيّنة لإسبانيا. وقد كانت كلماته عن « استقلال الريف » غير المحتلة واستعداده لمعارضة احتلال بني ورياغل مدعاة للقلق. وهي تشكل ما أسميته بـ « أول بيان مناهض للاستعمار لعبد الكريم »².

قرر عندها المفوض السامي، الجنرال غوميز جورदानا، تنحية القاضي عبد الكريم من جميع مهامه، وفي 6 سبتمبر 1915 رُج به في السجن. استندت التهم الموجهة إلى القاضي عبد الكريم، أثناء الإجراءات ضده، إلى تقرير النقيب سيست بشكل أساسي، رغم أن قاضي التحقيق أعلن، في 5 نوفمبر، أنه نظرا إلى أن التهم الموجهة للمتهم تستند

2. أرشيف مدريد العسكري العام (AGMM)، وثائق عبد الكريم، الملف 2، المجلد 10، الصندوق 1531. Archivo General Militar de Madrid (AGMM), Documentos de Abd-el-Krim, legajo 2, carpeta 10, Boîte 1531.

إلى معلومات قدمها أشخاص معادين للأب والابن، أعلن عدم وجود مخالفة وبأنه يمكن إيقاف الإجراءات. وقد أكد المدعي العام العسكري حكم قاضي التحقيق لكنه أعطى رأيه في التقرير عن الأفكار السياسية لمحمد بن عبد الكريم، وقد اعتبرها خطيرة لكنه كان يرى أنه لا يمكن تصنيفها باعتبارها جريمة، وبالتالي لا يمكن معاقبتهم عليها. وبما أنه لم تتم إدانته كان من المتوقع إطلاق سراحه، لكن السلطات الإسبانية قررت خلاف ذلك. وهكذا، بقرار من المفوض السامي غوميز جورדانا بقي محمد بن عبد الكريم في السجن. لقد كان قرارا مُثْمِله دوافع سياسية يهدف إلى إجبار والده على التعاون من جديد مع السلطات الإسبانية. لذلك يمكن اعتبار احتجاج محمد بن عبد الكريم كرهينة. بقي هذا الأخير رهن السجن حتى نهاية جوليوية 1916 عندما قررت السلطات الإسبانية إطلاق سراحه، بعد أن وعد الأب بسحب دعمه للقضية الألمانية-التركية والتعاون مرة أخرى مع إسبانيا.

لكن لم يتم إرجاع مُحَمَّد عبد الكريم إلى منصبه كقاضي حتى أبريل 1917. وقررت السلطات الإسبانية أيضا، في العام نفسه، تمويل دراسات شقيقه الصغير مُحَمَّد الذي ذهب إلى مدريد في أكتوبر 1917 للتحضير للالتحاق بالمدرسة العليا لمهندسي التعدين.

ظهرت شكوك حول « فعل نشر الحضارة » الإسباني في المغرب وتسلتل تدريجيا إلى ذهن الفقيه عبد الكريم الخطابي وابنه مُحَمَّد. كانا يشهدان على كيفية هدر المال دون فائدة حقيقية بسبب الحكم غير السديد وجهل البلد والفساد الذي كان ينخر الجهاز الإداري. لم تكن إسبانيا قادرة على أداء أي وظيفة من شأنها « نشر الحضارة »؛ لم تكن المدارس أو المستشفيات أو الطرق، في حين كان العساكر يحكمون القبائل ويديرونها بشكل مباشر، وكانوا يواصلون خططهم لغزو كل الأراضي المتمردة. كان الفقيه عبد الكريم يعتقد أن التعاون مع إسبانيا جلب له المصائب والمعاناة أكثر من الفوائد. وقد خططت إسبانيا عدة مرات لإنزال قواتها في خليج الحُسيمة، وهي عملية كانت تعتمد فيها على مساعدة لا تقدر بثمن من الفقيه عبد الكريم الخطابي، إلا أن هذا الإنزال لم يتم، وتعرضت عائلة الخطابي لأعمال انتقامية من قبل المقاومين الذين أحرقوا منزلهم ودمروا محاصيلهم.

ونظرا إلى الوضعية، اتخذ الفقيه عبد الكريم قرار استدعاء أبنائه إلى جانبه حتى يكونوا بأمان. وقد غادر الابن الأكبر، مُحَمَّد، أي عبد الكريم المقاوم، غادر مملية نهائيا في ديسمبر 1918 ليلتحق بوالده في أقادير، بينما غادر شقيقه الصغير مُحَمَّد مدريد في جانفي 1919. ومجرد أن التحق به ولداه، قرر الفقيه عبد الكريم سحب دعمه لإسبانيا لكن دون محاربتها. وهكذا، بقي الجميع بأقادير حتى ربيع عام 1920، عندما انضموا إلى حركة تافرسيت التي كانت تقاقل الإسبان.

وقعت هذه الأحداث تقريبا بالتزامن مع الهجوم العسكري الذي شنه الجنرال فرنانديز سيلفيستر بعد تعيينه قائدا عسكريا لمليية في فيفري 1920. وفي بداية أوت من العام نفسه، مرض الأب وتوفي بوقت قصير بعد عودته إلى أقادير. وجراء وفاته اختفت تقريبا حركة تافروست « لعدم وجود مقاتلين ». في وقت لاحق، قام القاضي عبد الكريم بنفسه بتأسيس حركة جديدة وسرعان ما تحول إلى قائدها بدون منازع. وقام بتوجيه جهوده نحو تحقيق الوحدة القبلية في مواجهة العدوان الاستعماري من خلال تعزيز الشعور بالانتماء إلى الأمة، وحاجة الأمة إلى حكم نفسها بنفسها. بالرغم من المظاهر، لم تكن حركته انفصالية في علاقتها بالمغرب. ولو خاطب السلطان كل المغاربة لمحاربة الغزو الخارجي لما كان هناك صراع مع الريف. فقد عارض الريف السلطان لأن هذا الأخير كان خاضعا للمحتل، فبالنسبة لمحمد بن عبد الكريم كانت الدولة الريفية تشكل المرحلة الأولى نحو تحرير المغرب في مجمله. كان يأمل في أن تمتد الحركة إلى المناطق الأخرى التي ستثور هي الأخرى، في نهاية المطاف، ضد الاحتلال الأجنبي.

نحن نعرف بقية الأحداث. لم يعد أمام الإسبان مقاومين مستعدين للدفاع عن أراضيهم القبلية فقط، ولكن مجموعات من المقاتلين المنظمين المصممين على التصدي لتقدم القوات الإسبانية ليس للدفاع عن أراضي قبيلتهم فحسب، وإنما للدفاع عن باقي المناطق غير المحتلة. وهكذا، بدأت المراكز العسكرية تسقط تدريجيا، واحدة تلو الأخرى. في البداية، سقط المركز العسكري بأدهار أبران في الأول من جويلية عام 1921، تمهيدا لإيغرين وأنوال في 22 جويلية من العام نفسه. وقد منح سقوط أدهار أبران سكان الريف مدافعهم الأولى، ثم سقطت كل المراكز العسكرية الواحدة تلو الأخرى مثل قلعة مصنوعة من الورق. سرعان ما انتشرت حركة المقاومة غربًا إلى غومارة ثم إلى جيبالة، ولم تعد تعترف إلا بمحمد بن عبد الكريم زعيما لها. أما الخطوة التالية، فتمثلت في تنظيم الإقليم وتعيين القادة وغيرهم من المسؤولين المدنيين والعسكريين من أجل إرساء أسس دولة جديدة، أو بشكل أدق، نواة دولة، بما أن الظروف كانت ستمنع تحقيق تطورها الكامل. وقد تمكنت الدولة الريفية، حتى مع استعادة الإسبان لجزء من الأراضي المفقودة في المنطقة الشرقية بالقرب من مليية، تمكنت من احتواء جزء كبير من منطقة المحمية الإسبانية، خاصة بعد أن قرر الجنرال الديكتاتور بريمو دي ريفيرا، في عام 1924، سحب المواقع العسكرية وراء خط كان يحمل اسمه، وهو « خط بريمو دي ريفيرا ».

وهكذا، في انتظار تشكيل حكومته بشكل جيد من جانب المحمية الممنوحة إلى إسبانيا، لم يرغب محمد بن عبد الكريم، بأي حال من الأحوال، الدخول في صدام مع الفرنسيين

الذين كان يرسل إليهم رسائل تصالحية بهدف تحييدهم في الصراع مع إسبانيا. كان لا بد من تجنب وجود جبهتين مفتوحتين في الوقت نفسه ضد قوتين أوروبيتين، لكن الصدام كان حتمياً عندما وجد عبد الكريم نفسه أمام مشكلة الاستجابة لنداء مجموعات من قبيلة بني زروال التي كانت تطلب مساعدته. كانت فرنسا تعتبر هذه القبيلة، المكتظة بالسكان والواقعة في المنطقة الحدودية بين المنطقتين، التي لم يتم تحديد حدودها بشكل جيد في المعاهدات، كانت تعتبرها جزءاً من منطقتها، وبالتالي فإن أي تدخل في أراضي بني زروال سينظر إليه هذه الأخيرة على أنه هجوم عليها. ومنذ تلك اللحظة، امتد الصراع إلى المنطقة الفرنسية. وحتى لو كان المارشال ليوتي، المعارض لتمديد الصراع، يريد أن تظل المواجهة محصورة في قبيلة بني زروال، فقد كان يتعرض لضغوط متزايدة مما أجبره على الميل لصالح التعاون العسكري مع إسبانيا لوضع حد لعبد الكريم. وقد كان يُنظر إلى حركة التحرير التي أطلقها الأمير على أنها خطر على الوجود الفرنسي ليس فقط في المغرب، وإنما أيضاً في جميع أنحاء شمال إفريقيا.

توصل البلدان، في مؤتمر مدريد في جوان وجويلية 1925، إلى اتفاق تعاون للتدخل في الريف. تمت عملية إنزال الحُسيمة في 8 سبتمبر 1925، وفي 2 أكتوبر غزت القوات الإسبانية أفادير عاصمة الدولة الريفية. وهكذا، في حين كان الإسبان يغزون الساحل ويغلبون إلى الداخل، كان الفرنسيون يتقدمون شمالاً بنية تشديد الخناق على الريفيين ومحاصرتهم. قاوم محمد بن عبد الكريم ثمانية أشهر أخرى، لكن عدم تكافؤ الوسائل كان كبيراً إلى درجة أدت إلى استسلامه في نهاية المطاف. كانت حرب الريف قاسية بشكل خاص. فبالإضافة إلى القنابل المتفجرة والحارقة، تمادى الجيش الإسباني إلى حد استخدام الغازات السامة.

وهكذا، استسلم محمد بن عبد الكريم في النهاية لتجنب معاناة شعبه، الذي أضعفته المجاعة بعد سنوات من ضعف المحاصيل بسبب الجفاف، وأُحيطت معنوياته بسبب القصف المستمر، وسلّم نفسه للفرنسيين، في 27 ماي 1926. بعد بضعة أشهر من الإقامة في فاس، قرر الفرنسيون إرساله إلى المنفى إلى جزيرة ريونيون في المحيط الهندي حيث وصل مع أسرته في أوائل أكتوبر. وعلى الرغم من الطلبات العديدة التي وجهها إلى الحكومة الفرنسية للسماح له بالعيش في مكان أقرب إلى موطنه الأصلي، سواء في منطقة المحمية الفرنسية أو في الجزائر، فضلت الحكومة الفرنسية إبقاءه بعيداً عن المغرب إلى غاية عام 1947؛ حيث قرّرت أخيراً إلى إرساله إلى جنوب فرنسا. عندها اغتنم محمد بن عبد الكريم الفرصة عند توقف القارب ببور سعيد، وبتشجيع من الوطنيين المغاربة

الذين صدعوا لتحيته، وقرر الترحّل من على متن القارب وطلب اللجوء السياسي من الحكومة المصرية. وقد اعتقد الوطنيون المغاربة، ربما صوابا، بأن الفرنسيين كانوا يعتزمون استخدامه لتحييد السلطان الذي اكتسب شعبية متزايدة بعد الخطاب الذي ألقاه في أفريل 1947 بطنجة. ففي هذا الخطاب، وعلى عكس الموقف اللينّ الذي كان يتخذه تجاه الاستعمار الفرنسي حتى ذلك الحين، أعلن تمسكه بقضية استقلال المغرب، في توافق تام مع مطالب حزب الاستقلال.

خلال فترة منفاه في القاهرة، كان محمد بن عبد الكريم نشطا بكثافة. فمن الناحية الفكرية، نشر مقالات في العديد من الصحف والمجلات حول مواضيع تتعلق بالمغرب والبلدان الأخرى وحركات التحرير التي تناضل ضد الاستعمار. أما على المستوى السياسي، فكان يستعد للالتزام التام في النضال من أجل استقلال البلدان المغربية. بعد تأسيس لجنة تحرير المغرب العربي في ديسمبر 1947، تم تعيينه رئيسا، وشقيقه محمد نائبا للرئيس، والحبيب بورقيبة، زعيم الحزب الحر الدستوري الجديد التونسي، أمينا عاما. لكن وجوده في هذه اللجنة كان مثيرا للجدل بسبب خلافاته واختلاف وجهات نظره مع القادة الوطنيين المغاربة، لا سيما علال الفاسي زعيم حزب الاستقلال. كان استقلال المغرب، بالنسبة لمحمد بن عبد الكريم، لا ينفصل عن استقلال دولتين مغاربيتين أخريين، تونس والجزائر. كانت علاقاته بمحمد الخامس سليمة إلى حد ما، بينما لم تكن كذلك مع ابنه ووريثه الحسن الثاني. فعلى الرغم من كل المحاولات لإعادته إلى المغرب، إلا أنه لم يرغب في ذلك أبداً. توفي محمد عبد الكريم الخطابي في 6 فيفري 1963، غداة ولادة الجزائر المستقلة.

إن الرسالة التي وجهها محمد بن عبد الكريم إلى « الأمم المتحدة »، في 6 سبتمبر 1922، تعبر عن الإعجاب والثورة، في الوقت نفسه اللتان، كانتا تلهمانه. وقد حثهم على « العمل من أجل رفاهية البشرية جمعاء، بغض النظر عن أي دين أو معتقد. لقد حان الوقت لأوروبا، التي أعلنت في القرن العشرين عن رغبتها في الدفاع عن الحضارة والارتقاء بالإنسانية، أن تحوّل هذه المبادئ النبيلة من عالم النظرية إلى مجال الممارسة ». هذه الرسالة هي رسالة رجل يؤمن بالتقدم والحرية. إن السلام واحترام حقوق الإنسان يعتمدان، بالنسبة له، على تمسك هذه « الأمم المتحدة » بالمبادئ التي وضعها هي نفسها.

تمثل حركة مقاومة محمد بن عبد الكريم، في الربع الأول من القرن العشرين، تنويرا لحركات مقاومة سابقة للاحتلال الأجنبي. إنها ليست فقط معركة ضد المحتل « المسيحي »

مثل الحركات السابقة، بل إنها تتجاوزهم بطريقة ما لأنها أيضًا معركة ضد استغلال ثروات البلاد من قبل الأوروبيين وفكرة تتضمن، بالإضافة إلى فكرة القبيلة، فكرة « الأمة ». يرجع هذا بالتأكيد إلى القدرات التنظيمية والقيادية الاستثنائية لمحمد بن عبد الكريم، ولكن أيضًا إلى لحظة تاريخية جعلت الظروف مواتية لظهور فكرة « الأمة ». أصبحت الإمبريالية الأوروبية أكثر عدوانية وعنفاً بعد الحرب العالمية الأولى. وقد اندرجت مقاومة الريف التقليدية لمحاولات الاحتلال العسكري في هذا الواقع الجديد، ووجدت قبائل الريف في محمد بن عبد الكريم زعيمًا قادرًا على فهم تطلعاتهم. وقد أعلن هذا الأخير، والذي كان رائدا لحركات التحرر الوطني بعد الحرب العالمية الثانية، أعلن للصحافي: « جئت مبكرًا جدًا! »³. يمكن القول، في الواقع، أنه كانت سابقا لعصره، لكن فشله أصبح بذرة الاستقلال المستقبلي للشعوب المستعمرة، والصفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وحتى القارات الأخرى.

3. مقابلة عبد الكريم في مجلة المنار، العدد 27، 1927-1926، ص 634-630.

البيليوغرافيا

- *Abd-el-Krim et la République du Rif*, 1976, Actes du colloque international d'Études historiques et sociologiques, 28-20 janvier 1973, Paris, Maspero.
- Ayache, Germain, *Les origines de la guerre du Rif*, Publications de la Sorbonne/SMER, Paris/Rabat, 1981.
- Daoud, Zakia, 1999, *Abd-el-Krim : une épopée d'or et de sang*, Paris 2010, Séguier.
- Khattabi, Mohamed ben Abd-el-Krim, (El), 2017, *Mémoire de la Réunion* (texte bilingue arabe-français. Traduction française de l'original arabe de Thami Azzemouri). Présentation de René Gallissot et María Rosa de Madariaga, pour la version française ; présentation de Abdelmajid Azzouzi, Mohamed Ounia, Abdelhamid Raïss y Jamal Amezian, pour la version arabe, Éditions Bouregreg, Rabat.
- Madariaga, María Rosa de, *Abd-el-Krim el Jatabi. La lucha por la independencia*, Alianza Editorial, Madrid, 2009.
- Pennell, C.R., *A country with a Government and a Flag. The Rif War in Morocco. 1921-1926*, Middle East & North African Studies Press Ltd, Wisbech (Royaume Uni) / Boulder (Colorado, USA).

الأمير عبد الكريم الخطابي واتحاد الشعوب من أجل تحرير البلدان المغاربية إدراج السياق في منظور متوسط المدى (1921-1954)

بقلم: دحو جربال¹

ترجمة: سناء بوزيدة

لا يوجد تاريخ واحد، بل تاريخان. طيلة القرن التاسع عشر، هناك واقعة متكررة فرضت نفسها: كان زمن الغزوات الإمبريالية والاستعمارية هو، في الوقت نفسه، زمن المقاومات العديدة التي خاضتها الشعوب. ومع بداية القرن العشرين، بدأت هذه المقاومات تتجاوز، شيئاً فشيئاً، حدود مقاطعة « القبيلة » بل حتى « اتحاد القبائل »، وحدود الممالك والعروش، لتنظم ضمن حركات « وطنية » أو عابرة للأوطان.

عندها، بدأت الشعوب المستعمرة تُوسّع آفاقها. وبدأت تتخلى، شيئاً فشيئاً، عن نمط الإنتاج « الخراجي » وتمثيله، وعن مقاوماتها الفلاحية ذات الطابع المحلي، لتنخرط في نظم تحالفات عابرة للأقاليم. وقد أدت انتقالات السكان بسبب الحرب العالمية الأولى (تجنيد الرعايا المستعمرين ضمن القوات الغربية، وتطور الرأسمالية الزراعية بتنوعاتها الكولونيالية وهجرة اليد العاملة من الأهالي إلى المتروبول)، أدت إلى تسريع الوعي بالذات وإلى تجذير مطالب التحرر والاستقلال من قبل البلدان المستعمرة. عندها اتخذت مقاومات هذه الشعوب محتويات جديدة وبلغ تنظيمها مستوى جديداً. اعتمدت في مرحلة أولى المجموعات الإقليمية والتمايزات الإيديولوجية المفروضة من قبل الدول الإمبريالية العظمى.

1. أستاذ محاضر في التاريخ المعاصر بجامعة الجزائر 2.

محاولات التحالف الأولى بين شعوب شمال إفريقيا ضد المحتل

تبين القراءة المتمنعة للتأريخ المعاصر للبلدان المغاربية أن المقاومات للاحتلال الكولونيالي الفرنسي والإسباني لم تقتصر على الداخل ولا على عمليات التقسيم الإقليمي التي أقامتها القوى المحتلة. فمن جهتي الحدود الجزائرية - المغربية والحدود الجزائرية - التونسية، كانت توجد أشكال تضامن موعلة في القدم لم تتوقف بين شعوب هذه المناطق. وكما كان عليه الأمر طيلة القرن الـ 19 والقرن الـ 20، وجدت المقاومات المختلفة ملاذات وقواعد خلفية من جانبي تلك الحدود لإعادة بناء قواها ومواصلة الكفاح التحرري. لكن يجب الإشارة إلى أن السلطات الاستعمارية قد استندت هي أيضا، من جانبي هذه الحدود، على قوات محلية مساعدة وولاءات من أجل القيام بعمليات الاحتلال هنا أو هناك. وإن مرحلة حرب الريف والقرار الذي اتخذه عبد الكريم الخطابي بالدعوة في أوت 1925، إلى تضامن شعبي الجزائر وتونس الشقيقتين، لم يكن من قبيل المصادفة. وهناك سلسلة من الأحداث، التي ذكرتها الكتابات التاريخية المغاربية تدفع إلى الظن بوجود تضامن نشيط بين الجماعات الحدودية منذ القديم. ويمثل اللقاء «الطاري» بين حفيد الأمير عبد القادر وعمه الأمير عبد المالك في منطقة الشاوية المغربية أحد العناصر الذي يؤكد ذلك.

في 1907، أرسلت كتبية الصبايحية التي عُيّن الأمير خالد²، حفيد الأمير عبد القادر، في صفوفها، في حملة عسكرية سميت بحملة إحلال السلام في منطقة الشاوية بالمغرب³. ونظرا لمآثره الحربية، رقي الأمير خالد إلى رتبة نقيب « بصفته من السكان الأصليين ». لكن الأمير، خلال هذه الحملة العسكرية، التقى عمه، الأمير عبد المالك الذي كان يدعو إلى « الجهاد » وترأس انتفاضة سكان الشرق المغربي كله، من تيطوان حتى مراكش، ضد السلطان عبد الحفيظ⁴. كان هذا اللقاء وموقفه المساند للسلطان عبد العزيز، خصم الفرنسيين، سبب له عدااء الجنرال ليوطي واستدعائه إلى الجزائر.

في 1921، أوقع عبد الكريم، الذي كان على رأس المتمردين الريفيين، خلال معركة أنوال (جويلية 1921)، أكبر هزيمة بقوات الاحتلال الإسبانية في الشمال المغربي⁵.

2. كان خالد الحسيني بن الهاشمي المدعو بالأمير خالد، وهو حفيد الأمير عبد القادر، ضابط بجيش الاستعمار الفرنسي وتخرّج برتبة ملازم من الأكاديمية العسكرية في سان سير. خلع زي الضابط وارتنى الزي التقليدي الذي كان يرتديه أجداده للدعوة إلى المقاومة. أثر بشخصيته القوية في الحركة المعروفة باسم الشباب الجزائري بين عامي 1912 و1923.

3. انظر في هذا الصدد: Charles-Robert Ageron, *Enquête sur les origines du nationalisme Algérie, Revue des Monde Musulmans et de la Méditerranée*, 1966, p.9-49.

4. انظر: Othman Bennani, *Lémir Abdelmalek à travers les archives de Vincennes*, Revue Amel.

5. انظر في هذا العدد مقال مصطفى بوعزيز: أنوال، ملحمة الخطابي (ملاحظة المحرر)

الأمير عبد الكريم الخطابي واتحاد الشعوب من أجل تحرير البلدان المغاربية...

في 1925، وفي الوقت الذي كانت فيه مقاومة الاحتلال الفرنسي-الإسباني على وشك الأفول، دعا الأمير عبد الكريم الخطابي الشعبين الجزائري والتونسي إلى الجهاد⁶. وحضهم على تأسيس جبهة مشتركة بين شعوب شمال إفريقيا المسلمة ضدّ الإمبريالية الفرنسية⁷. نلاحظ بهذا الصدد أن مفاهيم حديثة مثل الشعب والاستقلال قد بدأت تظهر وكذلك الإحالات القديمة إلى الأمة الإسلامية والجهاد.

لم يتمرد قائد جمهورية الريف (التي أسست في 1923) على النظام الملكي المغربي فقط الذي كان يعتبره خاضعا للقوى الأجنبية الكبرى (كان عبد الحفيظ، ملك المغرب يسمّى «سلطان الفرنسيين»)، بل كذلك ضدّ الإمبريالية الفرنسية التي تفرض حمايتها على المغرب. وعليه، كان يسعى إلى إقامة تحالفات مع شعبي الجزائر وتونس الشقيقين وكذا مع «الأمة الإسلامية». في الوقت نفسه، تمكن ابن مسعود، في الحجاز، من الانتصار على خصومه المحافظين وأسس مملكة العربية السعودية القائمة على أساس العقيدة الوهابية. حاول عبد الكريم الخطابي، عندما استدعي من قبل السلطات السياسية والدينية في العالم الإسلامي، أن يتخطى الحجر الذي فرضته عليه قوات الاحتلال الفرنسية لمنعه من المشاركة في المؤتمرات الإسلامية بالقاهرة لمنعه من المشاركة في المؤتمرات الإسلامية بالقاهرة (1925) ومكة (1926)⁸. وأمام استحالة ذهابه هو شخصيا، تم تمثيله في المؤتمر الأول من قبل الشيوخ الذين كانوا على رأس جمعيات علماء الأزهر والقاهرة. وهو ما فعله الأمير خالد بخصوص المؤتمر الإسلامي السابق الذي عُقد بالإسكندرية (1923)⁹، وكان الأمير خالد، ممثل الكفاح ضدّ الإمبريالية الفرنسية، قد وجد صدى سياسيا لدى الجماهير الشعبية وكذا لدى النخب الدينية بالشرق الأوسط.

إن القراءة المتمعنة لهذه النداءات والسعي إلى الحصول على تضامن أوسع من قبل شعوب المشرق يجب مقاربتها بطريقة دياكرونية تفاديا للسقوط في التأويلات الدوغمائية أو في النزعة الوطنية المتحيّزة.

6. انظر نسخة من النص الأصلي في الملحق

7. نداء محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى الشعبين الجزائري والتونسي، في أوت 1925، أرشيف إيكس أون بروفانس، 142H9. أخذ النص بالعربية من محمد قنانيشة ومحفوظ قداش من، OPU، L'Etoile Nord Africaine (1926-1937)، Alger 1984، p.67. انظر الوثيقة في الملحق.

8. Cremadellis Jacques, La France, Abd-el-Krim et le problème du Khalifat. Cahiers de la Méditerranée, 1973/6, pp. 48-77 ملاحظات حول عدد من الأرشيف غير المنشور في:

9. في عام 1923، استاء الحاكم العام ثيودور شتيغ بشدة من دعوات الأمير خالد لاتحاد الجزائريين ومطالبته بحق تقرير المصير، فقرر ترحيل هذا الأخير إلى الإسكندرية. أشاد به عندها المؤتمر الإسلامي للإسكندرية باعتباره ممثل الشعب الجزائري المناضل.

كما يجب إخضاع مسألة الالتباس بين السياسي والديني هي أيضا لقراءة نقدية لتاريخ الشعوب المغاربية¹⁰.

خيار نجم شمال إفريقيا السياسي الثوري

في جوان 1926، وفي الوقت الذي توقفت فيه حرب الريف بهزيمة المقاومة ونفي عبد الكريم الخطابي، نشأ نجم شمال إفريقيا بباريس تحت اسم جمعية الدفاع عن مصالح المسلمين الجزائريين والتونسيين والمغاربة، فرع الاتحاد بين المستعمرات. وهكذا، تأسس أول تنظيم ذي طابع سياسي يضم ممثلي شمال إفريقيا بمبادرة من الحزب الشيوعي الفرنسي وفي كنف الأممية الثالثة. تم التعبير عن هذا التلويح الوطني-البلشفي في 1927، خلال مؤتمر بروكسيل¹¹، أوضح تعبير في الخطاب الذي ألقاه شادلي خير الله (باسم الشعب التونسي) وخطاب مصالي الحاج (باسم الشعب الجزائري) المطالب باستقلال الجزائر استقلالا تاما وبرلمان جزائري وعودة الأرض إلى الفلاحين التي اغتصبت منهم.

ومن يومها، بدأت المسافة تتعمق بين الوطنيين الجزائريين والشيوعيين الفرنسيين الذين كانوا يرون أن الثورة الاشتراكية في فرنسا يجب أن تحظى بالأولوية على استقلال المستعمرات. وكان جواب مصالي الحاج على انتقادات وضغوط الحزب الشيوعي الفرنسي جوابا لا لبس فيه: «التعاون دون الخضوع».

أخذ الطابع الهوياتي للمقاومة أهمية كبيرة كما أكد ذلك هـ.إلسنهانس. «يجب أن نقرر ما الذي يجب أن نحتفظ به من هويتنا لنتمكّن من مجابهة العدوان الخارجي»¹². ففي مواجهة إرادة الغرب في فرض وصايته، بما في ذلك وصاية كبار الإخوان الشيوعيين كان الميل إلى تأكيد الهويات الثقافية والدينية القادمة من الشرق.

من إفريقيا الشمالية الفرنسية إلى المغرب العربي

إن إفريقيا الشمالية، التي لا تنحصر حدودها الثقافية واللغوية والحضارية في الحدود التي فرضتها القوى الإمبريالية الغربية، إنما تتقاسم، منذ قرون، تاريخا مشتركا مع الشرق

10. Cremadellis Jacques, Solidarité musulmane strictement religieuse ou solidarité politique des nations dominées et des masses populaires ? . *Op.cit.* p. 60.

11. المؤتمر التأسيسي لحلف مناهضة الاستعمار والقمع الاستعماري، الذي عقد في بروكسل في 10 فيفري 1927 بحضور 175 مندوبا منهم 107 من 37 دولة استعمارية. جواهر لال نهرو، هو شي مينه، جوميني الجنوب إفريقي، بلونكور من الأنتيل الفرنسية، لامين سنغور (رئيس لجنة الدفاع عن العرق الزنجي). كما حضر ألبرت أينشتاين، واشتراكيون يساريون، وممثلون من اتحادات حقوق الإنسان الأوروبية. انظر:

Fredrik Petersson, La Ligue anti-impérialiste : un espace transnational restreint, 1927-1937

الإنجليزية في François Bouillot in Monde(s) 2016/2 N 10, pages 129 à 150

12. Elsenhans H., La place de la guerre d'Algérie dans l'histoire mondiale, in *NAQD* Hors Série 4, p.6

الأمير عبد الكريم الخطابي واتحاد الشعوب من أجل تحرير البلدان المغربية...

العربي والإسلامي. فمنذ بداية القرن الـ 20، كانت الاتجاهات السياسية والدينية الداعية إلى تحرّر الشعوب وتحديث العقول تجيء من الشرقين الأدنى والأوسط. فمن مصر والحجاز كانت ترد الأفكار الإصلاحية الدينية، ومن بلدان الهلال الخصيب تجديد اللغة العربية وفكرة « الأمة العربية »، ومن تركيا حركة «الشباب التركية» التجديدية التي انتشرت في كل من تونس والجزائر في شكل حركتي « الشباب التونسي » و« الشباب الجزائري » التجديدية¹³.

وقد دفع فضل تحالف الشعوب المستعمرة مع الأحزاب الليبرالية الغربية والأممية البروليتارية إلى دفع وطنيي شمال إفريقيا إلى تكوين تجمّعات إقليمية ذات طبيعة هوياتية وثقافية. ففي 12 سبتمبر 1935، اجتمع بجنيف¹⁴، تحت قيادة شكيب أرسلان، مؤتمر أوروبا الإسلامي الذي شارك فيه 70 مندوبا. مثل هؤلاء مسلمي آسيا وإفريقيا (الجزائر، تونس، مصر، سوريا، لبنان، العراق، إيران، الهند، أفغانستان) والسلمين القاطنين بأوروبا أو مواطني بلدان أوروبية (يوغسلافيا، ألبانيا، تركيا، النمسا، المجر، بولونيا، هولندا، بريطانيا، سويسرا). تمحور الموضوع الأساسي الذي عالجه هذا المؤتمر حول البحث، بعد سقوط الخلافة، عن طريق جديد لتحقيق وحدة العالم العربي والإسلامي.

بعد مؤتمر 1935 هذا، بدأت تظهر ملامح تحالف بين شعوب إفريقيا وآسيا. من يومها، لم تعد إعادة تشكيل التقسيمات الإقليمية، والصراعات والتحالفات ضدّ السيطرة الإمبريالية، تتمّ فقط على أساس الإيديولوجيات الغربية الرأسمالية الليبرالية أو الاشتراكية-الشيوعية، بل انطلاقا من مرجعيات هوياتية لغوية ودينية معادية للإمبريالية. بعد الحرب العالمية الثانية، احتلا مفهوم المغرب العربي، في الشرق الأوسط وفي شمال إفريقيا، الصدارة في الخطاب المهيم. وتم الاعتراض على تسمية إفريقيا الشمالية الفرنسية أو شمال إفريقيا التي اعتمدها النزعة الوطنية الأولى سنوات 1920-1930 التي كانت تدعو إلى الاستقلال. عندها اندرج المغرب العربي في إطار مؤسسة

13. من أجل تفاصيل أكثر انظر:

Jean-François Legrain, L'idée de califat universel et de congrès islamique face à la revendication de souveraineté nationale et aux menaces d'écrasement de l'empire ottoman.

À propos du Traité sur le califat de RachidRidâ, <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00120036/document>.

14. شكيب أرسلان (1869-1946) درزي أصله من لبنان، يُلقب بأمرير البيان. وهو مؤرخ وسياسي وشاعر وكتّاب بارز كان ذي تأثير خلال النصف الأول من القرن العشرين. كان وطنيا عربيا شهيرا، أسس مجلة « الوطن العربي » التي أثرت على العديد من القادة الوطنيين العرب، ولا سيما الانفصاليين المغاربة بما فيهم مصالي الحاج.

الجامعة العربية¹⁵ كامتداد مستقبلي لها من المفروض أن يؤسس اتحاد الدول العربية. تمّ هذا في سياق التقسيمات الجديدة التي فرضتها القوى الغربيّة في الشرق الأوسط، ومنها، في 1947، تأسيس دولة إسرائيل اليهودية على الأراضي الفلسطينية¹⁶. ومنه، يمكن من وجهة نظر دلاليّة، أن نلاحظ حصول انزلاق من مفهوم الشعب العربي إلى مفهوم الدول العربيّة.

عبد الكريم الخطابي، مكتب المغرب العربي وبنادر نشأة جيوش تحرير المغرب العربي
طيلة سنوات 1930، التقى كل من محمد حسن الوزاني وأحمد بلفريج ومحمد وعلال الفاسي (المغرب) والشاذلي خير الله وأحمد بن ميلاد والحبيب بورقيبة (تونس) بقيادة نجم شمال إفريقيا (الذي أصبح في 1973 حزب الشعب الجزائري). تشاوروا حول الخط العام للحركة بخصوص الاستعمار الفرنسي. وغداة الحرب العالمية الثانية، التقى الوطنيون المغاربة والجزائريون والتونسيون بالقاهرة، حيث انعقد مؤتمر المغرب العربي الأول (من 15 إلى 22 فيفري 1947). نشأ، عن هذا اللقاء، مكتب المغرب العربي¹⁷ الذي حدّدت له مهمّة تنسيق العمل السياسي لمختلف الأحزاب الوطنية المغاربية.

في العاصمة المصريّة، وبسبب فشل الأحزاب السياسيّة بخصوص مسألة الطرائق والوسائل التي يجب اعتمادها لتحقيق التحرير، انتصر الخط الراديكالي المتمثل في اللجوء إلى الكفاح المسلّح، الذي دعا إليه عبد الكريم الخطابي، على الخط المعتدل المتدرّج والإصلاحي الذي اعتمده الأحزاب السياسيّة المهيمنة. ففي جانفي 1948، تم تأسيس «لجنة تحرير المغرب العربي» تحت قيادته. عندها، أصبحت المسألة المركزية تتمثل في التنسيق بين الأنصار من أجل الاتفاق على إطلاق الكفاح المسلّح في عموم شمال إفريقيا. على إثر اتفاق آخر لم يكتب له النجاح في 1951 بين ممثلي الاستقلال المغربي والدستور الجديد التونسي وحركة انتصار الحريات الديمقراطية الجزائرية، تمّ، على ما يبدو، عقد اتفاق حول ميثاق اتحاد مغاوير شمال إفريقيا وُقّع في 29 ماي 1954 بالقاهرة.

15. تأسست جامعة الدول العربية في القاهرة في 22 مارس 1945 من قبل سبع دول عربية (مصر، السعودية، العراق، سوريا، لبنان، الأردن، اليمن الشمالي). تهدف الجمعية إلى تأكيد وحدة «الأمة» العربية واستقلال كل عضو من أعضائها.
16. للتذكير، أرسلت لجنة تحرير المغرب العربي، برئاسة عبد الكريم الخطابي، أكثر من 400 رجل تم تشكيلهم في وحدات كوماندوز للقتال إلى جانب الفلسطينيين. انظر الهاشمي الطود، جذور التنسيق. شهادة مؤسس جيش التحرير المغاربي (1948-1955) تحت إشراف. دحو جربال، مؤسسة محمد بوضياف، 2004، ص 16 (النسخة العربية).
17. الشاذلي المكي، عضو من أعضاء إدارة حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية كان يمثل الفرع الجزائري هناك.

الأمير عبد الكريم الخطابي واتحاد الشعوب من أجل تحرير البلدان المغاربية...

ظهرت بذور التفاهم على التنسيق والاتفاق على انطلاق النضالات المسلحة الذي خطط له عبد الكريم وأنصاره حتى قبل 1 نوفمبر 1954، ثم تجسّد ذلك بعد انطلاق الثورة الجزائرية المسلحة في الدعم اللوجستي والسياسي من قبل جيش التحرير المغربي وجيش التحرير التونسي¹⁸.

في 1951، عقد اجتماع آخر، بعد أن اتخذت قيادة حركة انتصار الحريات الديمقراطية قرارا لحماية مسؤولي المنظمة السريّة إذ أرسلتهم إلى القاهرة، وهناك أسّس هؤلاء أوّل وفد خارجي للحزب، يوجد ضمنه كلّ من آيت أحمد ومحمد خيضر وأحمد بن بلّة. وهكذا، مرّ ممثلو طريق الثورة المسلحة بسنوات حاسمة بجوار اللجنة من أجل تحرير المغرب العربي. هناك أقيمت، خاصة بواسطة أحمد بن بلّة، تحالفات وتم تأسيس قطب المغرب-المشرق؛ ويبدو أنّ محوره يوجد بالعاصمة المصرية.

منذ 1954، وحتى قبل هذا التاريخ، تبلور، على أرضية العمل المسلّح، تحالف على أرض الواقع جسّد على الأرجح نوعا من اتحاد مغاوير شمال إفريقيا تأكّد مبدأه، على ما يبدو، كما أشرنا إلى ذلك سابقا، في 29 ماي 1954 بالقاهرة.

عندما بحث قادة حزب الشعب الجزائري - حركة انتصار الحريات الديمقراطية وبالأخص قادة المنظمة الخاصّة، مع بداية الخمسينيات، عن دعم لوجستي ومسالك لتمير السلاح، وجدوا ذلك عند ثوار الجنوب التونسي.

لم يكن هذا التقارب بين المناضلين الوطنيين بالأوراس والناماشة وواد سوف من ناحية، وأنصار صالح بن يوسف في الجنوب التونسي من ناحية أخرى، مجرد قرب دلالي أو جغرافي.

هناك وقائع وشهادات تؤكّد هذه الفرضية، لكنها وقائع وشهادات نادرة وجزئية بل مقتضبة. نحن نعرف مثلا أنّ جيش التحرير الوطني الجزائري قدّم، منذ الشهور الأولى لانطلاق الثورة، مساعدات في الجنوب التونسي لكل من لزهري شريط والطاهر لسود من أجل تنظيم وحدات (جيش التحرير التونسي)¹⁹. كما قدّم أنصار أحمد بن صالح معونة مباشرة للجنود الجزائريين.

18. انظر في هذا الصدد:

L'armée de libération du Maghreb (1948-1955), ss. dir. Daho Djerbal, Fondation Mohamed Boudiaf, 2004.

19. شهادة أحمد مهساس الممثل السياسي العسكري لجهة التحرير الوطني لدى السلطات التونسية في 1955-1956.

ويبدو أنّ التحالف بين وحدات جيش التحرير الوطني وجيش التحرير التونسي على أرض الواقع يندرج ضمن مشروع الانتفاضة العامة في شمال إفريقيا.

لتأكيد هذه الفرضية، نذكر ما قام به العربي بن مهيدي، الذي كان يدير المنطقة الخامسة بالغرب الجزائري (منطقة وهران)، عندما أقام مركز قيادته بالناظور، في الريف المغربي حيث توجد معسكرات جيش التحرير المغربي. وقد قدّم العقيد بن ميلود، أحد قادة هذا الجيش مساعدة للمقاتلين الجزائريين تمثلت في منحهم معسكر خميسات²⁰. وفي هذا المعسكر استعاد كلّ من أبركان والدكتور الخطيب مشروع جيش تحرير شمال إفريقيا.

لقد تمّ، على أرض الواقع تعويض المثل الأعلى لإقامة اتحاد مغربي على قاعدة تحالف سياسي بين أحزاب الاستقلال وحركة انتصار الحريات الديمقراطية والدستور الجديد، باتحاد مغربي قائم على أساس تلاقح جيوش التحرير في البلدان المغاربية الثلاثة: جيش التحرير المغربي وجيش التحرير الوطني الجزائري وجيش التحرير التونسي.

وفي مجابهة حلّ سياسي يتم عن طريق التفاوض ينصّ على استقلال البلدان المغاربية استقلالا متدرّجا عبر مراحل وتصوّب هذه البلدان وجهتها نحو الغرب، ظهر خيار آخر، خيار انتزاع الاستقلال بحدّ السلاح من أجل هدف بناء مغرب عربي متحرّر من الهيمنة الأجنبية كما حلم بذلك الأمير عبد الكريم الخطابي.

20. Ali Haroun, *La 7^e wilaya. La guerre du F.L.N. en France*. Paris. Le Seuil.1986. p.42.

سيورة اندلاع المرحلة الثانية من حرب الريف : النزاع الفرنسي-الريفي

بقلم : محمد خرشيش¹

ترجمة : سناء بوزيدة

لا شك أن الحرب الفرنسية-الريفية التي اندلعت في 13 أفريل 1925 كانت نتيجة سيورة بدأت منذ 1921. ويبيّن لنا تطوّر الوضع منذ ذلك التاريخ بصورة واضحة الأسباب التي أدت إلى انفجار وضعيّة ظلّت تتفاقم سنة بعد سنة، خاصّة مع التقدّم الفرنسي بتاريخ ماي 1924. وكانت المطالبة بقبيلة بني زروال من قبل المتنازعين، ممثّلين في القادة الفرنسيين والريفيين، يمنع حصول أيّ حلّ سلمي للمشكل خاصة وأنّ الطرفين كانا مدركين لأهمية هذه القبيلة من الناحية السياسيّة-الاستراتيجيّة والاقتصاديّة.

كانت الرواية الرسميّة الريفية، التي قدّمها أزرقان في مذكراته تُلخّص على النحو التالي: كان المسؤولون الريفيّون مضطرين إلى التدخّل بعد التدخلات المكثّفة من قبل السلطات الفرنسيّة في قبيلة بني زروال خاصة عن طريق « عميلهم » الشريف درقاوي. كان هذا الأخير يمارس سياسة ترهيب وقمع ضدّ كلّ مناصري الحركة الريفية؛ كان يبعث رسائل لوجهاء قبائل عديدة ليحرّضهم هكذا على الانقلاب على الريفيّين والانضمام إلى الفرنسيّين². لكن هؤلاء لم يلبثوا، كما أكّد رسول بعثه عبد الكريم³، أن أرسلوا رسائل للقائد الريفيّ ليقدموا له دعمهم. وعلى إثر ذلك، أمر هذا الأخير حراكبيّه أن يحتلّوا قبيلة بني زروال ليعاقبوا « الشريف ».

1. أستاذ التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانيّة. جامعة تطوان، المغرب.

2. أزرقان، الظل الوريث في محاربة الريف، مكتبة الداودية، تطوان، ص 141.

3. علي خمليشي، هو ريفي، كان يسكن بطنجة ويلعب دور الوسيط لدى عبد الكريم.

وكان حدّو بن حمّو، مبعوث عبد الكريم، قد أعلم، غابريالي، قبل ذلك، بأنّ الريفيين لا يمكن أن يقبلوا، بأي حال من الأحوال، حصول أي تقدّم فرنسيّ في قبيلة بني زروال، قبل حلّ مشكل الحدود بين المنطقتين.

استفحلت الوضعية أكثر فأكثر بعد رفض المندوب السامي الاقتراح الريفي بخصوص رسم الحدود. وعلاوة على ذلك، كانت السلطات الفرنسية عاجزة عن التهجّم على سمعة عبد الكريم وتأثيره، وكذلك على « الخطر المتزايد الذي تمثّله الإمارة الريفية⁴ ». وقد أدرك الريفيون الخطة الفرنسية التي تهدف إلى وضعهم أمام « الأمر الواقع ». أثمرت هذه السياسة نتائجها في 27 ماي 1924 مع النجاح شبه التام للتقدّم الفرنسي ناحية ضفة واد ورغة اليمنى. لكنّ الريفيين بادروا هذه المرّة باحتلال مجمل مقاطعة قبيلة بني زروال. في هذا السياق، قامت ثلاث حركات ريفية، بتاريخ 12 أفريل 1925، بالتجمّع على حدود القبيلة وشنوا هجوما على قبيلة بني زروال وعلى أمجوط، التابعة للشريف درقاوي.

التقدّم من جهة ضفة واد ورغة اليمنى، مشروع لطالما تمّ تأجيله

لا شك أنّ الجبهة الشماليّة (واد ورغة)، رغم اندلاع الحرب الإسبانية-الريفية، كانت تُعدّ، حتى 1923 بمثابة جبهة باردة، لكن، قبل قرار المارشال ليوطي⁵، مع بداية سنة 1924 أن يعبر واد ورغة، كانت هذه الجبهة محلّ مراسلات عديدة بين المندوبية السامية والكي دورساي⁶.

ما إن بدأ الريفيون اتصالاتهم مع القبائل المجاورة لواد ورغة، ومع المجابهات بين الحركات الريفية ورجال عبد المالك وعمار دحميدو، حتّى أكّد وزير الشؤون الخارجية للمارشال ليوطي، ردّا على رسالة أثار فيها هذا الأخير المشكلة، « أنّ الحكومة لا يمكن، بأي حال من الأحوال، أن تتنازل عن الاستيلاء على قبائل ضفة واد ورغة اليمنى التي هي، بكلّ وضوح، جزء من المنطقة الموكولة إلى فرنسا بموجب المعاهدات والتي لا تقبل أيّ اعتراض ».

بين معركة أنوال (جويلية 1921) واحتلال فرنسا لنقاط استراتيجية في ورغة (ماي 1924)، عرفت الوضعية في المنطقة تطوّرا كبيرا. وهناك تكمن، في رأينا، الأسباب التي أدّت إلى اندلاع النزاع وكذلك الوقائع التي أخّرت التقدّم الفرنسي حتّى تاريخ 27 ماي 1924.

4. Robert Montagne. « Abdelkrim ». *Revue politique étrangère*, pp.301 324, juillet 1947, pp. 309-310.

5. هوبير ليوطي (1854-1934). ضابط خلال حروب الغزو الاستعماري. كان عام 1912 أول مقيم عام للمحمية الفرنسية بالمغرب. كان وزير الحرب أثناء الحرب العالمية الأولى ثم مارشال فرنسا عام 1921. (ملاحظة المحرّر).

6. ملاحظة المترجمة: وزارة الشؤون الخارجية الفرنسية التي يطلق عليها كذلك الكي دورساي Quai D'Orsay.

مشاريع فرنسا ذات الأولوية وتقليص التعداد العسكري

صحيح أنّ موقف الحكومة الفرنسيّة كان واضحا بخصوص السلطة الموكلّة إليها بموجب المعاهدات على قبائل ضفّة ورغة اليمنى. لكن، بين 1921 و1923، لم تكن تستطيع إنجاز مثل هذا الاحتلال، نظرا بالخصوص لانشغال أغلبية قوات الحماية بـ « فرض السلم » في مناطق أخرى من بينها منطقة تازة ووژان. هذا هو السبب الذي دفع وزير الشؤون الخارجية أن يأمر المارشال ليوطي بالدخول في مفاوضات مع عبد الكريم لجعله يدرك بأنّ مصلحته في نهاية المطاف تتمثّل في تفادي أيّ نزاع مع فرنسا⁷.

لا يجب أن ننسى أيضا تقليص الاعتمادات الماليّة والتعداد العسكري الذي قرّره الحكومة الفرنسيّة بين 1921 و1925 بسبب التكاليف الماليّة، وكذا إصرار ليوطي نفسه على عدم التورّط في « المأزق الريفي ».

لا شك أنّ هذا التقليص الذي قرّره السلطات الفرنسيّة كان مفروضا على المارشال ليوطي وليس مرغوبا وهو ما حتّم عليه القيام بالتحضير لعمليات ورغة انطلاقا من هذه المعطيات الجديدة. لكنه كان مشغولا قبل كل شيء بـ « فرض السلم » في تازة ومنطقة وژان.

فشل العمل السياسي الفرنسي وتطبيق مشروع الاحتلال

منذ 1924، حصل تحوّل خطير وحاسم في الوضع بين المنطقتين (الفرنسيّة والإسبانيّة). فقد تعرّض كلّ من عمّار دحميدو والقايد مذبوح، وكانا « حليفين » لفرنسا، لخسارة واضحة في مواجهة المقاتلين الريفيّين، وهو ما دفعهما إلى اللجوء إلى المنطقة الفرنسيّة. وكانت النتيجة المباشرة هي سيطرة عبد الكريم على منطقتي مرنيسة وأقزناية.

في الناحية الغربية، وإذا كانت منطقة بني زروال الواقعة تحت "قيادة" الشريف درقاوي لا زالت تقاوم محاولات عبد الكريم المختلفة، إلا أنّ قبيلة بني أحمد المجاورة (في الشمال) قد التحقت بالمقاومة الريفيّة.

بين 1922 و1924، لم تعد العملية التي تُمثّل حجر الزاوية في السياسة الفرنسيّة في الجبهة الشمالية كافية لضمان الحضور الفرنسي في هذه المنطقة، وحماية مصالحها السياسيّة والاستراتيجيّة. هذه الحقيقة المؤكّدة، دفعت المارشال ليوطي إلى وضع خطة لاحتلال ضفّة واد ورغة اليمنى، وهي الخطة التي تمّ تأجيل تنفيذها أكثر من مرّة بسبب

7. Archives des affaires étrangères (Quai d'Orsay) Paris, AAE 477 Dépêche n° 208-209. Paris 22 juillet 1922. Du Ministre des affaires étrangères au Maréchal Lyautey.

من وزارة الشؤون الخارجية إلى المارشال ليوطي

وجود مشاريع أخرى ذات الأولوية، منها منطقة تازة "تيشوكت"⁸ غير الخاضعة التي دفع إليها الفرنسيون وسائل عسكرية ضخمة دون أن يتمكنوا من إخضاعها إخضاعا تاما.

يمكن القول بأن احتلال النقاط الاستراتيجية في واد ورغة أصبح، سنة 1924، مسألة ضرورية بالنسبة للمارشال ليوطي. فقد كان يلاحظ بحيرة صعود نجم عبد الكريم بين قبائل واد ورغة، بل حتى وسط تلك التي كانت خاضعة للسلطة الفرنسية⁹.

ومن يومها، لم يتوقف عن محاولة لفت أنظار الحكومة بخصوص خطورة الوضع والإجراءات التي ينوي اتخاذها من أجل التصدي "للدعاية الوطنية المعادية للأجانب" التي تزايدت منذ شهور والتي يمكن أن تُفشل كل العمل الذي أنجزته فرنسا منذ سنين¹⁰.

في 13 فيفري 1924، بعث ليوطي تقريرا إلى الكي دورساي، أكد فيه الخطوة الكبيرة التي يتمتع بها عبد الكريم في منطقة واد ورغة بأكملها، خاصة بعد الهزيمة التي ألحقتها الحركات الريفية برجال عمار دحميدو (مرنيسة) والقايد المذبوح (آفزانية). وختم عندها تقريره بما يلي: « سيبقى وضعنا في غاية الخطورة (...) ما لم نستول على المرتفعات المطلّة على ضفة المنطقة الوسطى من واد ورغة حتى المنفذ، في المنطقة المحاذية لمركزنا الحالي بمدينة، السد الذي يمنع الحشود الريفية من النزول باتجاه فاس وتهديد عاصمة المغرب الدينية هذه ... »¹¹.

توضّح هذه الخاتمة التي وضعها ليوطي توقعه حصول هجوم ريفي على مدينة فاس. وعليه، فإن انشغاله لم يكن منحصرًا في منطقة واد ورغة فحسب، لأنّ تطوّر الأحداث تمّ في اتجاه لم يكن متوقّعا بفعل خضوع القبائل المحاذية لسلطة عبد الكريم. وقد قام هذا الأخير لإعادة تنظيمها بتعيين قايد على رأس كل قبيلة وهي إجراءات من شأنها أن تخفف من الخصومات التي كانت موجودة بين القبائل وتحقق انسجاما فعليا بينها و« إحساسا بالسيادة ». وما كان يمكن لمثل هذه المبادرات إلا أن تُعقّد مهمّة السلطات الفرنسية، خاصة وأن اتصالات عبد الكريم بـ « منشقين » في تازة تصاعدت. وهو ما أدى إلى نهاية خضوع هذه القبائل التي كانت في السابق تعرف « تزييدا مضطردا »¹².

8. ملاحظة المترجمة: إضافة من عندنا إذ يطلق على منطقة تازة بالأمازيغية "تيشوكت"

9. AAE 479 n° 53, Bulletin périodique. Rabat 19 janvier 1924. Du résident général au Quai d'Orsay.

10. AAE 479 n° 70. Rabat, 28 Janvier 1924. Du maréchal Lyautey au Quai d'Orsay.

11. AAE 479. Rabat, 13 février 1924. Du Maréchal Lyautey au ministre des affaires étrangères. P.160.

12. AAE 479 n° 135. Rabat, 17 mars 1924. De la Résidence générale au ministre des affaires étrangères.

كان عبد الكريم، في نظر ليوطي، يمثل خطرا دائما على فرنسا، ليس بسبب تحريضه المستمر على مقاومة القبائل، التي كانت حتى تلك اللحظة خاضعة، ولكن أيضا لأن دور عبد الكريم باعتباره حامي الاستقلال والإسلام في الريف كان يزيد من حظوته.¹³ ومن أجل هذا المشكل الذي لا يهدد المصالح الفرنسية في منطقة قبائل واد ورغة فحسب، بل يهدد كذلك أمن واستقرار المنطقة الفرنسية برمتها، اختارت السلطات الفرنسية احتلال نقاط استراتيجية في أقرب الآجال. وكانت هذه السلطات تنوي هكذا تفادي إمكانية حصول هجوم الحركات الريفية على « المغرب الفرنسي » وإعادة الثقة لـ « عملائهم » الذين أصيبوا بخيبة أمل بعد الهزيمة الواضحة التي أوقعها عبد الكريم بهم.¹⁴ في المذكرة الدورية التي أرسلها المقيم العام إلى رئيس المجلس في 27 فيفري 1924، ألح إلحاحا على التأثير المتزايد لعبد الكريم على القبائل المحاذية لورغة وضغط عبد الكريم المتزايد على هذه الأخيرة.

ونشير هنا إلى الزيارة الالافتة التي قام بها ليوطي إلى مدينتي فاس من أجل دراسة المسألة في عين المكان واتخاذ الإجراءات الضرورية في مواجهة خطورة الوضعية.¹⁵ وبعد هذه الزيارة أكد أنه لا يمكن أن يؤجل أكثر التعامل مع جبهتي ورغة كما تخوله الحقوق المؤكدة التي تمنحها له المعاهدات.¹⁶

بتاريخ 27 مارس 1924، غادر سي صديق الخمليشي¹⁷ مدينة فاس متوجها إلى أقادير ليشرح للقائد الريفي نية الفرنسيين في احتلال بعض المواقع المتعلقة بالمنطقة التي منحها المعاهدات الدولية للفرنسيين. كان جواب القيادات الريفية لمبعوث السلطات الفرنسية واضحا ودقيقا: يجب على الفرنسيين أن يدركوا بأن القيادات الريفية قد بحثت دائما على إقامة روابط متينة وعلاقات متميزة معها قائمة على أساس الاحترام المتبادل. وأنه لا بد،

13. AAE 479. Rabat, le 13 février 1924 p.160.

14. « إن أي تأخر جديد يمكن أن يؤدي إلى الإلقاء بالقبائل المعنية في الحيرة والشك التام في نوايانا المستقبلية. وستؤدي هذه الحيرة والارتباك إلى الإلقاء بها في أحضان عبد الكريم. عندها، ومن أجل استمالتها، سنضطر إلى القيام بعمل عسكري أصعب بكثير يتطلب إمكانيات أكبر واعتمادات مالية ولن يكون مضمون النتائج ».

أرشيف وزارة الحرب (قصر فينسين باريس)

AMG 3H602. Lettre n° 532 datée à Fès, le 22 mars 1924. De Lyautey au président du Conseil, p.3 (من ليوطي إلى رئيس المجلس)

15. AAE 480. Télégramme n°135. Rabat 17 mars 1924. De Lyautey à Poincaré.

من ليوطي إلى بوانكاري

16. AMG 3H602. Lettre n° 532. Déjà cité, p2.

17. وجيه وتاجر بفاس « معروف وحسن السمعة لدى عبد الكريم ». Cf, Hubert Jacques, *L'aventure rifaine et ses dessous politiques*. Ed. Bossard, Paris, P31.

من أجل ذلك، إطلاق محادثات جادة¹⁸. في شهر أبريل، اندلعت مجابهات عنيفة بين قوات عبد الكريم ورجال عبد الرحمن درقاوي « خادم » فرنسا الأمين. كان هذا الأخير قد نظم مقاومة ضدّ عبد الكريم الذي كان يستعد، حسب ليوطي، لتكوين وحدات عسكرية من بين رجال القبائل من أجل مجابهة الهجومات المعاكسة للقوات الإسبانية¹⁹.

خلال سيرورة المعارك بين قوات الطرفين كُلف الوجيه فاسي بأمر من السلطات الفرنسية أن يعود مرّة أخرى للاتصال بالريفيين وإطلاعهم على إرادة فرنسا في استقبال مبعوث معتمد من قبل عبد الكريم²⁰.

في 9 ماي، حل المبعوث الريفي، الفايدي علي بن حدّو، المعروف باسم علّوش، حلّ بمدينة فاس، مكلفاً من قبل عبد الكريم بأن يشرح للسلطات الفرنسية موقف الريفيين بخصوص إمكانية تقدّم فرنسي :

أولاً: قبل القيام بأيّ تقدّم، يريد الريفيون معرفة حدود المنطقة الفرنسيّة بالضبط. ثانياً: إذا ظهر أنّ الريفيين يحتلّون أراضي تنتمي إلى المنطقة الفرنسيّة، فإنهم مستعدّون لإخلائها شريطة أن تمنحهم السلطات الفرنسيّة الوقت الكافي لإقناع القبائل بواسطة « القيام بحملة تحسيسية » في الأسواق حتى يعرف الجميع هذا الأمر وحتى يتمّ الإخلاء دون حصول حوادث ودون أن يؤثّر ذلك على سمعة القائد الريفي²¹.

بعد الاستماع إلى الشروح التي قدّمتها السلطات الفرنسيّة، عاد علّوش إلى الرّيف ليُطلع الزعيم الريفي على محتوى محادثاته مع تلك السلطات.

عندما عاد من جديد إلى مدينة فاس، ليطلب من الفرنسيّين، باسم الزعيم الريفي، أن يؤجّلوا تاريخ تقدّمهم في ضفة واد ورغة اليمنى ويؤكّد أنّ الريفيين لا يقدمون أيّ تحفظ بخصوص الحدود بين المنطقتين بعد التوضيحات التي قدّمتها الفرنسيون؛ كان تقدّم القوات الفرنسيّة قد انطلق يوم 27 ماي 1924، أي قبل وصول مبعوث الزعيم الريفي إلى فاس.

18. استقبل مبعوث السلطات الفرنسية من قبل عبد الكريم الخطابي (عمّ عبد الكريم ووزير المالية) ومحمد الخطابي (شقيق عبد الكريم).

19. 3-6. Bulletin périodique du 10 avril 1924, adressé au Maréchal Lyautey à Poincaré, pp. 3-6. AAE 480. (موجه من المارشال ليوطي إلى بوانكاري)

20. غادر فاس في 25 أبريل لمدة عشرة أيام، وعاد إلى فاس في 5 ماي 1924. "تلى ذلك معارك طاحنة طيلة 29-17 و30 أبريل. خلال أيام 1 و4 و9 ماي، كانت الصدامات حاسمة وخسر الريفيون مئة قتيل وثلاثة أضعاف جرحى" Hubert Jacques : op, cit, p. 34.

21. Azerkane, op cit, pp. 130-131.

لكن، قبل انطلاق هذا التقدّم، كان عبد الكريم قد استقبل وُجْهَاء قبيلتي بني أحمد وبني مسطارة الذين جاؤوا ليعلنوا رغبة القبيلتين في الانضمام إليه، تحت زعامته.

وكان عبد الكريم، حسب أرزقان، قد وافق على تعيين قايد على رأس بني احمد لأن هؤلاء كانوا يشكّلون جزءا من المنطقة الإسبانية؛ وفي المقابل، شرح لوجهاء قبيلة بني مناصرة أنه لا يستطيع تعيين قايد على رأس القبيلة، في تلك اللحظة على الأقل، لأن قبيلتهم توجد ضمن المنطقة الفرنسية²².

أما السلطات الفرنسية، فقد كانت من جهتها، تنتظر اللحظة المناسبة من أجل التقدّم. وقد عرف الشهران (أفريل وماي 1924) تصاعد المعارك الإسبانية-الريفية في المنطقة الشرقية. هذه الوضعية أجبرت عبد الكريم أن يستدعي القوات الموجودة، حتى تلك الفترة، في أراضي مريسا وصنهاجة.

كان المارشال ليوطي قد لخص ضخامة القتال بقوله: «... يبدو أن عبد الكريم في هذه اللحظة معلّق الآن في جبهة تفرست الإسبانية حيث لم يتمكن، رغم جهوده، من تحقيق أيّ تفوّق واضح»²³. والشيء نفسه بالنسبة للإسبان الذين ليس لهم من حلّ سوى « غص الطرف » عن العمليات الفرنسية بمحاذاة المنطقة²⁴.

على كل حال، وفي ماي 1927، كانت كل الظروف متوفّرة لضمان نجاح هذه العملية التي أُجّلت منذ سنوات للأسباب التي عرضناها، دون المخاطرة بالوقوع وجها لوجه مع الريفيين، خاصة بعد العمل الثمين الذي قام به الشريف درقاوي.

كل هذا يدفعنا للظنّ بأنّ انفتاح الفرنسيين على الريفيين، وإرسال مبعوثهم مرتين إلى الريف والاستقبال « شبه الرسمي » للمبعوث الريفي إلى فاس، لم يكن إلاّ تكتيكا محدّدا بدقّة تمّت تهيئته لصرف نظر الريفيين ووضعهم في نهاية المطاف أمام الأمر الواقع؛ أي احتلال نقاط استراتيجية في ضفة ورغة اليمنى. وإن كان الأمر غير ذلك، فهل يمكن أن نجد تفسيراً منطقياً آخر لتقدّم القوات الفرنسية في الوقت الذي انطلقت في مفاوضات حول هذه المنطقة؟

كانت السلطات الفرنسية تُعوّل على المفاجأة وسرعة الحركة لضمان نجاح عملياتها. ومن أجل ذلك، قامت بتحضيرات مسبقة في الخلف قبل أن تنطلق في التقدم نحو ورغة.

22. عيّن عبد الكريم الشريف سيدي محمد مسلّحي البومهيدي القايد على بني أحمد 122. Azerkane, op. cit. p.122.

23. AAE 480 n°170. Bulletin périodique du 10 avril adressé au Quai d'Orsay par le Maréchal Lyautey.

نشرة دورية بتاريخ 10 أفريل أرسلها المارشال ليوتي إلى كي دورساي

24. AMG 3H602 lettre n° 532, déjà citée, p.3

جُمِعَت كل القوات بعين عيشة تحت قيادة الجنرال شمبران²⁵. وبالتوازي مع هذه التحضيرات العسكرية، تم تكثيف العمل السياسي باتجاه قبائل ضفة ورغة اليمنى لدفعها وإقناعها بضرورة الخضوع لـ «المخزن».

وباختصار، عرفت السلطات الفرنسية، بخصوص هذه المسألة، كيف «تبرز القوة لتفادي استعمالها»، وذلك باختيار الوقت المناسب للشروع في تقدّمها بعد تحضير دقيق.

مسألة بني زروال وانطلاق المواجهة

منذ نهاية شهر ماي 1924، أي منذ احتلال فرنسا لنقاط استراتيجية على ضفة ورغة اليمنى، فتحت مرحلة جديدة: مرحلة الاستنفار التام من الجهتين: لم يستسخ عبد الكريم تماما التوقيت الذي اختاره الفرنسيون للقيام بتقدّمهم، فرد بإرسال «حركة» إلى الحدود بين صنهاجة سراير ومثيوّة تحت إمرة الثايد علواش الورغلي²⁶.

من جهة أخرى، وبعد النجاح المؤكد لتقدمهم واحتلالهم، دون حدوث عوارض، لنقاط استراتيجية، لم يعد يمكن للفرنسيين - هذه المرة - أن يسمحوا لعبد الكريم بتدعيم سلطته في بني زروال، منطقة نفوذ أشرف درقاوة، أصدقاء فرنسا الأوفياء.

بالموازاة، أمر عبد الكريم وزيره للدفاع، ممثلا في أحمد بودرة أن يقوم بإحصاء السلاح المتوفر في الريف وعند أهل غومارة. وقد بيّنت عملية الإحصاء أن مخزون السلاح غير كاف لمجابهة خصم قوي مثل فرنسا.

على إثر ذلك، تم اتخاذ القرار بتنظيم غارات على الخطوط العسكرية الإسبانية لمحاولة سد هذا النقص وتوفير الإمكانيات اللازمة لاحتياجات المقاتلين الريفيين من أجل مجابهة القوات الاستعمارية. مكّنت هذه الغارات الريفيين، حسب أزرقان، من الاستيلاء على ترسانة حربية ضخمة بعد الحصار المنهجي للشكنات العسكرية الإسبانية²⁷.

كانت النتيجة المباشرة للتقدم الفرنسي، انتفاضة العديد من القبائل المحاذية وخاصة قرناية وصنهاجة سراير والمثيوّة وبني وليد. أدت هذه الوضعية إلى صدامات بين القبائل المتمردة،

25. AAE 479. Rabat le 26 janvier 1924. Du Maréchal Lyautey à diplomatie et guerre, p.45.

من المارشال ليوطي إلى وزارة الدبلوماسية والحرب.

26. Azerkane, *op. cit.* p. 13.1

27. كان الريفيون يطوّقون الشكنات من كل الجهات التي يمكن أن تتزوّد منها بما تحتاج. وهناك مثل أورده أزرقان بيّن فعالية هذا التكتيك، يتعلق هذا المثل بشكنة أفراو الكبيرة (في قبيلة بني سعيد) التي طوّقها ألف مجاهد طيلة عشرين يوما؛ على إثر ذلك، بدأ الجنود يفزّون تاركين وراءهم غنائم ضخمة من الأسلحة ووقوع العديد من الأسرى بالطبع. Azerkane, *op. cit.*, p.117.

بدعم من الحركات الريفية المتواجدة في عين المكان والقوات الفرنسية. انطلقت المعارك منذ جوان واشتدّت خلال شهري جويلية وأوت²⁸. لكن الفريقين لم يكونا يرغبان في اتساع النزاع.

الأهمية السياسية-الاستراتيجية والاقتصادية لقبيلة بني زروال

يكفي معرفة الموقع الجغرافي لهذه القبيلة لكي نُدرك أهميتها²⁹. فهي تمثّل مصلحة خاصة في نظر السلطات الفرنسيّة. إنّ هذه السلطات تحظى ، قبل كل شيء ، بدعم أكبر شخصية مؤثّرة في القبيلة وهو الشريف عبد الرحمن الدرقاوي³⁰. وقد تدعّم هذا الوفاء بعد اندلاع الحرب الإسبانية-الريفية بفعل المعارضة الضارية لهذا الأخير ضد المحاولات الريفية المتتالية. من جهة أخرى، أدى التقدم الفرنسي شمال ورغة، واحتلال بعض الأجزاء من منطقة بني زروال ابتداء من سبتمبر 1924، إلى زعزعة هامة لسلطته. هذه الشخصية التي كانت، في 1920، تستطيع تجميع الأغلبية المطلقة من وجهاء القبيلة بـ « قلعة سلس » لتقديم ولائهم للسلطات الفرنسية³¹ أصبحت، مع نهاية سنة 1924 وبداية 1925، تمرّ بوضعية حرجة تختلف اختلافا جذريا عن وضعيتها السابقة.

انطلقت حركة تلقائية في مختلف مكوّنات القبيلة احتجاجا على تصرّفات الفرنسيين ومن أجل التنديد بموقف الشريف المتخاذل³². كان رد الفعل الفرنسي سريعا وعنيفا إذ تم نصب مدافع موجّهة ضدّ المكوّنات المذكورة تاليا من أجل تخويفها، لكن مع عدم التقدّم؛ لأنّ « ...بني زروال كانوا وحدهم، ذلك أن الريفيين كانوا قد أطلقوا هجوما كبيرا على الجبهة الإسبانية بكامل القوات التي يتوقّرون عليها »³³. وكان إبقاء بني زروال تحت السلطة الفرنسية مسألة ضرورية بالنسبة للحماية الفرنسيّة للأسباب التالية :

أولا: لمنع حصول الالتقاء بين مقاومة الغرب (بني مستارة - غزاوة) ومقاومة الشرق (مريسة وفزنايا)؛ لهذا السبب قامت فرنسا باحتلال بني قاسم في سبتمبر 1924؛ وهو ما سمح لها بضمان انخراط بني زروال في دائرة وزّان. كانت الفئة المحاذية لبني أحمد، وفيه تماما لعبد الكريم لكون موقعها الجغرافي لا يسمح

28. Hubert Jacques, *op cit.*, pp. 51-54.

29. القبائل التي تحدها من الغرب: غزاوة وبني مستارة؛ ومن الشرق: قبيلتي متيوة ومزراوة؛ ومن الشمال: قبائل بني أحمد وبني خالد وصنهاجة السراير؛ وفي الجنوب: بني أورغايل وجاية.

30. والحقيقة أنّ الأمر يتعلّق بمحمد، ابنه البكر الذي كان مكلفا بتنفيذ كل المشاريع التي تم التفاوض عليها مع الفرنسيين، وذلك لأنّ والده كان متقدّما في السنّ ولا يستطيع التنقّل بانتظام؛ لكن هذا الأخير هو الذي يضمن الاستمرارية نظرا لمكانته التاريخية وتأثيره الديني بفعل نشاطات زاويته بأمجوط وسمعته الكبيرة وسط سكان المنطقة.

31. AMG 3H438. Rapport déjà cité, p.8.

32. *Ibid.*, pp 20-25.

33. AMG 3H438. Notice n° 1154 déjà citée, p.11.

للفرنسيين بإقامة اتصالات عميقة مع وجهائها، وهو « ما سمح للريفيين بأن يجدوا فيها أفضل أنصارهم حيث توجد أنشط بؤر التحريض ».³⁴

ثانياً: كان الهدف من احتلال بني زروال يتمثل، قبل كل شيء، في حماية ومساعدة حليف، منذ زمن بعيد، أصبح يمرّ بمرحلة صعبة وخطيرة.

ثالثاً: تطبيق المشروع الجديد الذي أقرّه المجلس الإداري، والذي يتمثل في التراجع بمحاذاة تطوان وملييلة. هذا التراجع المهين للإسبانيين، رغم كونه تراجعاً تكتيكياً فرضته، إلى حدّ بعيد، الوضعية الداخلية، أبرز ضعف إسبانيا وعجزها عن أن تحسم بمفردها المسألة الريفية. وكانت النتيجة « تزايد حظوة عبد الكريم تزايداً كبيراً ليصبح مركز الجذب بالنسبة للوطنيين ».³⁵

زيادة على هذا، كما يرى الملحق العسكري في السفارة الفرنسية بمديريد، كان من بين الشروط التي طرحها الريفيون من أجل التفاوض حول مصير الأسرى الإسبان وبالتالي إمكانية « حصول تفاهم إسباني - ريفي » هو « تسليم 1000 بندقية موزبر و25 بطارية شنيدر وكميات كبيرة من الذخائر ». وكان طلب الحصول على هذه الترسانة العسكرية يبرّر، على ما يبدو، بالخوف من إمكانية حصول اعتداء فرنسي.³⁶

رابعاً: رسم الحدود الفرنسية-الإسبانية في الاتفاق الفرنسي-الإسباني، بتاريخ 3 أكتوبر 1904 وفي معاهدة 27 نوفمبر 1912، كانت الحدود بين منطقتي البلدين هي على النحو التالي: في الغرب لوكوس وفي الشرق واد مولويا حتى سيدي معروف. وكان عدم دقّة الخطوط الفاصلة قد ترك للجبهتين الفرصة للمطالبة بأجزاء من مناطق واسعة.

كانت قبيلة بني زروال من بين الأجزاء المتنازع عليها بين الدولتين. كان الفرنسيون يرون أن القبيلة تندرج كلّها ضمن منطقتهم؛ أما الإسبان فقد كانوا يطالبون بالقبيلة كلها ما عدا منطقة ولاد قاسم. لكن هذه المساحة التي تطالب بها إسبانيا « تندرج ضمنها، خطأً برأيي، أمجوط، محل إقامة الشريف درقاوي ».³⁷ أثر هذا الواقع تأثيراً عميقاً على العلاقات الفرنسية-الإسبانية. ذلك، أن هذه القبيلة تسمح لهؤلاء أن

34. *Op. cit.*, p.18.

35. AMG 3H134. Rapport n° 3610 p/m. de l'attaché militaire au ministère de la guerre

(الملحق العسكري لدى وزارة الحرب).

انظر كذلك: L'Afrique française novembre 1924 pp. 612-614.

36. AMG 3H134. *Ibid.* p.6.

37. AAE 506. Dépêche n° 878 Rabat, 13 mai 1925. من ليوطي إلى وزارة الشؤون الخارجية.

يدعموا وحدتهم بتكوين وحدات نظامية لمحاربة الإسبان في منطقة تطوان خاصة في صفوف بني مكا الذين كانوا تحت السلطة التامة للقائد الريفي.

تكرّر سيناريو السنة السابقة نفسه مع إرسال مبعوث الإقامة الفرنسية العامة، عبد العزيز لحلو، الذي وصل إلى أفادير في 18 مارس 1925. وخلال مقابلة حصلت نفس اليوم مع نسيب عبد الكريم بوجبار، أُطلع هذا الأخير بأن السلطات الفرنسية تعتبر قبيلة بني زروال مقاطعة تابعة لمنطقة نفوذ الحماية الفرنسية؛ وعليه تُعتبر أيّ عملية ريفية تهدف إلى ضمّ هذه القبيلة « إعلان حرب » ضدّ فرنسا.

في الغد، استُقبل من قبل محمّد، شقيق عبد الكريم، الذي أكد له إرادة الريفيين في حل الخلاف الحدودي مع فرنسا قائلاً: « إننا لا نرغب في الحرب مع الفرنسيين ولا نسعى إلاّ إلى التفاهم معهم »، مذكراً بأنّ العديد من وفود بني زروال جاؤوا يطلبون الدعم وضمّ قبيلتهم إلى الريفيين. كُنّا مسرورين بتعيين قياد حتى وإن كنا نستطيع ضمّ هذه القبيلة « في يومين على أكثر تقدير »³⁸. بعد أربعة أيام، استقبل عبد الكريم المبعوث ليؤكد له أنّ كلام شقيقه يحمل نفس دلالات كلامه هو.

بعد عودة المبعوث إلى فاس، عاد القايد حدّو بن حمّو إلى توريرت، مكلفاً من قبل أرزقان أن يشرح لغابريالي، المراقب المدني بتوريرت، الاقتراح الجديد الذي يقدمه القادة الريفيون لوضع حدّ نهائي للخلاف الحدودي، ويتمثل هذا الحلّ في تشكيل لجنة فرنسية-ريفية تكلف بتعيين الحدود الدقيقة بين المنطقتين قبل أن تقدم السلطات الفرنسية على أيّ تحرّك³⁹.

بعد أن تلقى رد المارشال ليوطي، أخبر غابريالي حدّو أن « أيّ وضع رسمي للحدود » لا يمكن أن يحصل مؤكداً بخصوص مسألة بني زروال أن القبائل المُحاذية، خاصة بني أحمد وبني خالد، يعرفون جيّداً الحدّ الذي يفصلهم: وهو ما يعني أن السلطات الفرنسية ليست مستعدّة لتقديم أيّ تنازل للريفيين من أجل وضع حدّ لخلافاتهم.

في الختام، يمكن القول بأنّ تدخّل فرنسا باعتبارها قوّة إمبريالية مُشعّة في هذا النزاع، يشكل مقدّمة لاختلال عميق بين الجهتين رغم الانتصارات غير المتوقّعة التي حققتها الحركة الريفية خلال الشهور الأولى من الاصطدام العسكري (أفريل-جويلية 1925).

38. Hubert Jacques, *op. cit.*, pp. 74-75.

39. Gabrielli Léon, *op.cit.*, p 55. Cf aussi Hubert Jacques, *op. cit.*, p.80.

لقد حصل منذ ذلك الوقت، أنّ القوتين الاستعماريّتين، ممثلة في كل من فرنسا وإسبانيا لم تلبثا أن فتحتا مفاوضات ثنائية أدّت إلى معاهدات كثيرة يمضي كلّها نحو ضرب حصار شديد: بري وبحري ومُباشرة أعمال هجومية مشتركة بين قيادتيهما العسكريّتين. وهذا ما أدى إلى تفكُّك جبهة المقاومة خلال شهر ماي 1926.

عبد الكريم وتحرير المغرب في خمسينيات القرن العشرين

بقلم: بيرنابي لوبيز غارسيا. جامعة أوتونوما بمدريد

ترجمة: سناء بوزيدة

armas en la
ed Uld Zaian.
87 cajas conte-
de 500 a 2.800
jas de metra-
opeta, así co-
de estas cajas
uiente: "SOT
GM de Cha-
municiones
sella".

Funcionarios
que ha sido
tra el régi-
os indepen-
enidas doce-
idos han si-
eligro la se-

n" a las re-
res asistían
e ellos un
e este gru-
la respon-

Gobiernos marroquí y francés de que debe mantenerse una íntima cooperación y desarrollarla en todos los frentes por el bien de Marruecos y Francia».

Abdelkrim exhorta a la continuación de la lucha en el Rif

EL CAIRO, 14 (Reuter). — En un mensaje dirigido a los combatientes marroquíes del Rif, publicado por la Prensa egipcia, Abdelkrim, el antiguo cabecilla rifeño, advierte a los guerrilleros que no se fíen de las promesas y que continúen luchando con las armas "mientras haya un solo soldado francés en Marruecos".

Un local del PDI, saqueado

Se anuncia esta noche en Rabat que un comerciante francés musulmán de Argelia ha sido raptado esta mañana

Marrue uni Decl

El jefe del
hecho unas
al representa
ternacional,
por esta em
ducimos los

Después d
preguntas se
junta franco
pendencia es
contenidos e
representant

أخبار في صحيفة إسبانيا اليومية

ذكرت الصحيفة اليومية بطنجة « إسبانيا » بتاريخ 15 مارس 1956، بعد أسبوعين من الإعلان الفرنسي-المغربي الصادر بتاريخ 2 مارس الذي اعترفت فيه الحكومة الفرنسية رسميا باستقلال المغرب، وأعلنت المفاوضات مفتوحة لمنح التبعية المتبادلة والتعاون بين البلدين، ذكرت أن « عبد الكريم يحثُّ على الاستمرار في النضال بمنطقة الريف ».

انتشر الخبر، الذي أذاعته وكالة رويترز، في الصحف المصرية. كان هذا الخبر بمثابة صدى لرسالة « الزعيم الريفي السابق » كما كانت تطلق عليه الصحيفة، وهي رسالة كانت تحذّر « المناضلين في حرب العصابات وتحثهم على عدم الوثوق في الوعود وعلى مواصلة الكفاح المسلّح في ظل وجود ولو فرنسيّ واحد في المغرب ».

كان سلطان المغرب، محمّد الخامس، قد دعا، قبل ذلك ببضعة أيام، إلى وقف إطلاق النار حتى يمكن اختتام مفاوضات الاستقلال والتوصل إلى نتيجة. هذه الدعوة كانت ردا على الصراع القائم بين عبد الكريم خطّابي ومحمد بن يوسف.

كانت صحيفة إسبانيا صحيفة خاصة تصدّر في طنجة باللغة الإسبانية، وهو ما كان يسمح لها بالإفلات من الرقابة التي كانت تعاني منها الصحافة الإسبانية. لم يعد اسم عبد الكريم خطّابي يحمل، بالنسبة لإسبانيي تلك الفترة - أكثر من 25.000 إسبانيا بطنجة في 1956، لم يعد يحمل الدلالة التي كان يحملها في العشرينات الثلاث السابقة، خلال حرب الريف الدموية التي تحدثت عن فقدان آلاف الأرواح الإسبانية والمغربية. مع ذلك، كان المقال الصغير المنشور في صحيفة تصدر بالمغرب، بلغة يتداولها آلاف المغاربة في شمال البلاد، والذين كانوا يُحافظون على صورة حيّة للأمير الريفي، كان يحمل معنى عميقا.

دور جيش التحرير المغربي

كان السؤال الأساسي المطروح هو من الذي كان يتوجّب على جيش التحرير المغربي أن يطيعه؛ إذ كان قد تمّ إنشاؤه لتحقيق استقلال البلاد وإعادة السلطان محمد بن يوسف إلى العرش بمجرد عودته من المنفى وبمجرد الاعتراف باستقلال البلاد وفقا للبيان الفرنسي-المغربي الموقع بتاريخ 2 مارس. ما هي درجة الاستقلال التي أرادوا تحقيقها؟

قامت صحيفة إسبانيا، خلال أيام نشر هذا المقال الصغير، بإدراج عدد من الأخبار الأخرى المتعلقة بجيش التحرير المغربي، وهي أخبار كانت تُعلم عن نداءات قادة الأحزاب المغربية، بما فيها نداء السلطان، لوقف القتال في مختلف مناطق البلاد، خاصة في المنطقة المتاخمة للمحمية الإسبانية، مثلث بورد-أكنول-تيزي وسلي الشهر، بشمال محافظة تازة.

وقد أجاب أحمد بلفريج، قائد حزب الاستقلال، في مقابلة مع وكالة فرانس برس في طنجة بتاريخ 15 مارس :

« لديّ انطباع أنه، في غضون أسبوع تقريبا، قد يتوقف القتال في الريف نتيجة لإعلان استقلال المغرب الوارد في البيان المشترك الفرنسي-المغربي الصادر في 2 مارس ؛ وهو خبر زفّه سلطاننا المحبوب للشعب المغربي في خطابه الذي تم بثه في الإذاعة بتاريخ 7 مارس ». كانت هذه التصريحات تذكر بالتعليمات التي أرسلها حزبه إلى مقاتلي المقاومة في الريف وفي منطقة شمال-شرق المغرب، وهي تعليمات تأمر بوقف الاشتباكات مع الفرنسيين، وقد أذاعها بلفريج بنفسه لمراسل صحيفة نيويورك تايمز.

قام علال الفاسي، من جهته، بعد عودته من منفاه إلى المغرب، بالتأكيد في مؤتمر صحفيّ بأنّ « جلاله السلطان محمد الخامس سيُسمع في الريف (...)». وبعد إعادة تنصيب السلطان على عرشه والحصول على الاستقلال والوحدة، سيوقف جيش التحرير المغربي عملياته في غضون أسبوع «.

كانت تسعى هذه التصريحات إلى جعل الرأي العام يعترف بسيطرة حزب الاستقلال على المقاتلين، والذي كان في نزاع مع حزب الشورى والاستقلال الذي كان سيجّه، في 19 مارس، نداءه الخاص لدعوة رجال جيش التحرير المغربي بالريف، بمريضة ومرموشة وبني زروال وفرسيف وبركان، إلى قصد القصر الملكي برباط وإلقاء أسلحتهم أمام السلطان مقابل ضمانات شخصيّة.

وهكذا، كان يبدو أنّ وقف الاشتباكات لن يكون فوريا، واضطرّ القسم المحليّ لحزب الشورى والاستقلال بفاس إلى إصدار بيان صحفي لتبرير كون «بعض الحتميات الماديّة التي ظهرت في اللحظة الأخيرة « خاصة » المسافات الكبيرة التي تفصل بين مجموعات المقاتلين « تستلزم آجالاً أطول للاتصال بـ القادة المسؤولين عن مختلف ساحات عمليات القتال¹». وكان هذا القسم يبرّر بهذه الطريقة الاستدعاء الذي صدر يومين من قبل والذي دعا إلى إلقاء الأسلحة أمام الملك. وقد خلّص البيان إلى أنه « ستأتي، بالرغم من ذلك، بعض المجموعات لتسلم الأسلحة أمام السلطان ».

استمرت بعض المعارك، مثل الكمين الذي نُصب بتاريخ 18 مارس لمفرزة من الفيلق الفرنسي على طريق أكنول، على بُعد 40 كيلومتر من شمال تازة والذي خلّف ضحايا.

1. صحيفة إسبانيا، 21 مارس 1956: « وقف الاشتباكات بالريف ».

وقد أعلنت الصحافة بعد ذلك وقف الاشتباكات وتجمّع مقاتلي حرب العصابات في تاينست وطاهر السوق وأكنول ومزفيتام، وحياد القوات الفرنسية التي تم تنبيهها لهذا الغرض.²

أصدرت القيادة العامة لجيش التحرير المغربي بالاتفاق مع حركة المقاومة بيانا صحفيا في 29 مارس 1956 أبلغت فيه عن:

« الوقف المؤقت للعمليات العسكرية وبقاء جيش التحرير المغربي في مواقعه حتى تحصل السيادة المغربية على الحرية الكاملة؛ دون شروط أو تحفظات، وطالما لا تهاجم القوات الفرنسية جيشنا في معسكراته لأننا سنكون يقظين »³.

ونصّت الوثيقة على النزول عند رغبة جلالة الملك « الممتثلة في الحفاظ على الهدوء حتى يتم تحديد توجّه فرنسا في المفاوضات وتُظهر مرة أخرى استعدادها وحسن نيّتها ». وقد تم التحذير من استغلال الأحزاب لقراراتها لتبدو على أنها هي المسيطرة، مؤكدة على أنه لا يمكن لأحد أن يتحدّث باسم جيش التحرير المغربي والمقاومة. وانتهى البيان بالإعراب عن الثقة في حكمة الحكومة المغربية، لكنّه حدّر مضيّفا:

« ومع ذلك، فإن تاريخ الإمبريالية الفرنسية، الذي يلوح أمامنا مثل الظل المخيف، يفرض علينا الحذر واليقظة وكذلك الحماية الأكثر فعالية لتفادي الوقوع في الفخّ. إن موقف فرنسا وانقلاباتها في المفاوضات مع سوريا ولبنان والهند الصينية حاضر بيننا ».

إن النبرة الشرطيّة والحالة المؤقتة لوقف إطلاق النار كانت جليّة بالإضافة إلى الحل الشكلي اتجاه دعوات إنهاء القتال من قبل الأحزاب المغربية والملك نفسه. لم تُذكر إسبانيا على الإطلاق كجزء من هذه المفاوضات.

ما هي الروابط التي كانت تجمع بين عبد الكريم خطابي وجيش التحرير المغربي؟

قام الزعيم الريفي عبد الكريم خطابي، بعد بضعة أشهر من وصوله إلى القاهرة حيث عرض عليه الملك فاروق اللجوء السياسي، بإطلاق نداء، في 5 جويلية 1948، إلى لجنة تحرير المغرب العربي حيث استطاع الجمع بين القوى السياسية المختلفة لبلدان المغرب الأوسط الثلاثة المتواجدة في المنفى بالقاهرة: الحركتان الدستوريتان التونسيّتان، وحزب الشعب الجزائري، والأحزاب المغربية الممتثلة في حزب الاستقلال، وحزب الشورى والاستقلال،

2. أبلغت صحيفة إسبانيا عن إعادة تجمّع المقاتلين بشمال أكنول في 24 مارس.

3. صحيفة إسبانيا، 29 مارس 1956: الوقف المؤقت للعمليات العسكرية. بيان جيش التحرير الوطني.

وحزب الوحدة المغربية، وحزب الإصلاح الوطني. كان الهدف المركزي هو النضال من أجل الحصول على استقلال الدول الثلاثة عن فرنسا. كانوا يدركون اختلاف الإيقاع بين النضالات. وأمام احتمال تحقيق البعض منها أهدافها الخاصة قبل غيرها، فقد تعهدت هذه الأحزاب بالتزام مشترك ففي حال: « حصول إحدى الدول الثلاثة على الاستقلال التام لا يعفي اللجنة من واجبها في مواصلة النضال من أجل تحرير البلدان الأخرى »⁴.

حسب تصريحات زكي مباركي⁵، كان الأمير عبد الكريم مؤيدا لمنح لجنة تحرير المغرب العربي جناحا مسلحا بدءا بالتكوين العسكري لبعض العناصر. وكان محمد حمادي العزيز، وهو تيطواني كان قد وصل إلى القاهرة من فترة قصيرة بعد ذلك، من أوائل الذين تلقوا هذا التدريب الذي اتبعه لمدة ثلاث سنوات في الكلية العسكرية العراقية. في عام 1952، أثناء زيارة سرية إلى المغرب، حاول هذا الأخير الاتصال بقيادة حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال الذين عبروا عن عدم استعدادهم لأعمال مسلحة. وقد تم إبلاغ شقيق عبد الكريم، وهو نائب رئيس لجنة تحرير المغرب العربي، والمسؤول عن شؤون الدفاع، تم إبلاغه بذلك.

وحسب زكي مبارك، سمح وصول الضباط الأحرار إلى القاهرة بتدريب مجموعة من الشباب المغربي تدريبا عسكريا في معسكرات تدريب طوال عام 1953، بفضل الوثائق التي سهلها حمادي العزيز. كان هذا الأخير على اتصال بين بلة وخيضر وشارك في تحضير الانتفاضة الشعبية لجهة التحرير الوطني بدعم من عبد الناصر، واعتقل بالجزائر عام 1954.

لا شك في إلهام عبد الكريم الخطابي للحركة الوطنية المغربية وكفاحها من أجل تحرير المغرب. لكن الأمر كان يختلف بالنسبة لسلطته على الحركة. وقد نفى مصطفى حسينية، إحدى الشخصيات المؤثرة في التنظيم، أن يكون لقائد الريف « أي سلطة عليهم »، معتبرا إياه « مجرد شخصية رمزية، دون مزيد من التسامي أو القيادة »⁶.

4. علاء الفاسي، حركات الاستقلال في المغرب العربي، لجنة الثقافة الوطنية لحزب الاستقلال، منشورات الرسالة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1948، ص 339.

5. Zaki M'barek, « Résistance et Armée de Libération Marocaines », in *Al Asas*, n° 8, février 1978, pp. 6-14.

6. المكتب الإعلامي المختلط بطنجة OMIT، الملاحظة R-2056، « مقابلة مع رئيس جيش تحرير » 15 جويلية 1956، أريشيف القنصلية العامة لإسبانيا بطنجة ACGET.



دورية من السينغاليين ألقى عليها جيش التحرير الوطني المغربي القبض في 7 ماي 1956
وقدمها مصطفى حسينية (صاحب الشارب على اليسار) لمحمد الخامس. المكتب الإعلامي المختلط ACGET

إن التشكيل الرسمي لجيش التحرير الوطني المغربي، الذي أعلن عنه علال الفاسي في مؤتمر صحفي في القاهرة في 2 أكتوبر 1955 من خلال البيان رقم 1، ظهر باسم « جيش تحرير المغرب العربي » (ELMA). وقد وُقِّع على البيان، بالاشتراك، كل من « حركة المقاومة المغربية » وجبهة التحرير الوطني الجزائرية (FLN). وتمت الدعوة فيه إلى « الجهاد » ببلاغة منمّقة ذات دلالات دينية، وأُعلن فيه بدء عمليات جيش التحرير : « المكون من مجموعة من الحركات الوطنية المخلّصة، الفدائيين، في مجمل شمال إفريقيا (...) بعد فشل مجموعة من الرجعيين الكاذبين فيما يدافعون عنه والذين أعمت مصالحهم الشخصية المستعمرين وأتباعهم الخونة، مما منعهم من رؤية الحقيقة »⁷. كانت أهداف هذه الدعوة هي نفسها أهداف البيان الأول في عام 1948 الذي أصدره عبد الكريم والمكّيّف مع السياق المغربي :

7. دُوِّنت نسخة من البيان في ملاحظة المكتب الإعلامي المختلط بطنجة R-1215، « بيان جيش تحرير المغرب العربي »، 5 أكتوبر 1955، بأرشيف القنصلية العامة لإسبانيا بطنجة ACGET. في مقال زكي مباركي المذكور يذكر بأنه وفقاً للدكتور الخطيب، وهو شخصية رئيسية في جيش التحرير الوطني المغربي، لم يكن علال الفاسي على دراية بتاريخ انتفاضة 2 أكتوبر 1955 إلا في اليوم الرابع من أكتوبر، وهو التاريخ الذي اضطر فيه إلى نشر بيان القاهرة.

« 1- النضال حتى النهاية من أجل الاستقلال التام لبلدان الغربي العربي مع عودة سلطان المغرب الشرعي إلى عرشه في الرباط. 2- عدم اعتبار أنفسهم ملزمين بأي اتفاق حاضرا كان أو مستقبليا لا يحقق الهدف الأول بكامله. »

ظهر بعدها هدف ثالث، والمتمثل في اعتبار « أي مواطن يطالب بشيء مخالف لما اتفقت عليه الحركات الوطنية المخلصة » مهرطقا. كما تم التأكيد على أن جيش التحرير الوطني المغربي يملك « إمكانيات كافية لمواصلة النضال حتى تتحقق الأهداف في مجملها»، أي « القضاء على قوى الاستعمار الفرنسي بكل أشكاله»، مع التحذير من الخونة. واتسمت نهاية البيان بنصيحة قرآنية ظهر تحتها توقيع « حركة المقاومة المغربية ALMA » وجبهة التحرير الوطني الجزائرية:

« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا⁹. الله أكبر. قوموا للجهاد⁹ »


لكن يجب تحديد الاتصالات التي كانت لهم مع النظام المصري ومع عبد الكريم نفسه. ما يبدو واضحا هو أن جيش التحرير الوطني المغربي بدأ تحالفه مع جبهة التحرير الوطني الجزائرية، التي كانت تخوض حرب تحرير منذ ما يقارب العام، بموجب تعليمات اللجنة التي شكّلت مع عبد الكريم، وأن تونس، التي كانت في حالة استقلالية داخلية متقدّمة، وكان يبدو أنها تتميز عن النضال المغربي¹⁰.

في ملف جوان 1956 للمكتب الإعلامي المختلط لطنجة، ذُكرت منظمة جيش التحرير الوطني المغربي، الذي كان لا يزال نشيطا بعد بضعة أشهر من إعلان الاستقلال، وكان يمارس وظائف الشرطة في بعض المدن خاصة في المناطق الريفية، ولكنه كان لا يزال رهن الصراعات الداخلية بين مؤيدي حزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال. كان مصطفى حسينا نائبا لهيئة الأركان التي كان يرأسها الدكتور عبد الكريم الخطيب. كان على رأس إحدى الوحدات الثلاث التي كانت شكل في جيش التحرير الوطني المغربي، وحدة الأطلس المتوسط، أما وحدتان الأخريان فكانتا تقعان في الريف والجنوب. وتجدر الإشارة إلى أن

8. ملاحظة المترجمة: نشر هنا إلى أننا نقلنا السورة كما هي في « ترجمتنا » ووضعناها في شكل خط مائل للتمييز بينها وبين بقية النص الوارد في البيان.

9. منسوخة من السورة الثامنة، سورة الأنفال، الآية 56-66. ونجد في الآية 66 ما يلي: الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

10. في المذكرة 10 للمكتب الإعلامي المختلط لطنجة، المؤرخة في 15 جويلية 1956، كان الأمر يتمثل في إرسال جيش التحرير الوطني المغربي لـ « وحدة مكونة من 1000 رجل مسلح ويحمل معدات » إلى الجزائر.


**INTERVENCION TERRITORIAL
DE
TETUAN**

DE ORDENACION.

Volante

Negociado _____



Número _____

Expediente 16.334.

El musulmán, **ABDAS BEN AOMAR BEN LAHSEN ESTUQUI**, natural de Anam, fracción ulad Sidi Pars de la tribu de Estuca (Z. F.) de 34 años, casado, marroquí, hijo de Aomar y Jadiya, de profesión comerciante, identificado con fotografía al margen, que ha autorizado para permanecer en Tetuán hasta nueva orden, sin facultad para ausentarse de esta ciudad, en calidad de refugiado político, procedente de zona francesa.

TETUAN; 8 de julio de 1.955.
P. EL INTERVENTOR TERRITORIAL,

[Handwritten signature]

إجازة عباس مُساعدي للجوء السياسي بتطوان

هذه هي منطقة الريف الواقعة في المحمية الفرنسية، والتي كانت المنطقة الحدودية للمحمية الإسبانية ملاذا لها. كانت تقدم المساعدة اللوجستية للمقاومة المغربية وكانت تمنح اللجوء السياسي للوطنيين الذين كانوا يفرون من المنطقة الفرنسية. ومن بينهم الدكتور الخطيب¹¹.

إن جيش التحرير الوطني المغربي، الذي تجاوز عدد أعضائه، بحسب حسينية، 20.000 رجل، وقع بعد الاستقلال تحت هيمنة حزب الاستقلال الذي أراد احتكار المشهد السياسي، قبل أن ينضم جزء كبير من أعضائه إلى القوات المسلحة الملكية. ويرى حسينية أن حزب الشورى والاستقلال كان « حزبا عميلا للفرنسيين يشتغل بمفرده وحصرياً لصالح فرنسا ». أدت هذه القناعة المعممة بين مؤيدي حزب الاستقلال إلى اشتباكات مع حزب الشورى والاستقلال مما أدى إلى التصفية الجسدية للعديد من أطره.

كان حسينية يعتبر أيضاً أنه، خلال الأشهر الأولى من الاستقلال، شكل جيش التحرير الوطني المغربي « قوة احتياطية كان يمكنها أن تكون مستعدة لطاعة السلطان بقدر ما كان يمكنها أن تعتبر هذا الأخير غير قادر على تحقيق ما تستحقه البلاد ويواجهه ». وبحسب المذكرة المذكورة، فإن صاحب المقابلة :

« لم يُخف أن جيش التحرير لم يكن يثق في محمد الخامس، ليس لأنه كان يعتبره فرنكوفيلياً أو قادراً على خيانة الشعب الذي ضحى بنفسه لإرجاعه، ولكن خوفاً من أن ينتهي به الأمر - نظراً إلى تعبه ويأسه أمام المشاكل التي كان عليه أن يواجهها كل يوم - إلى الإيمان بأن الحل الوحيد هو الارتقاء في أحضان فرنسا والسماح لها بـ «معالجة» الوضعية. في هذه الحالة، سينقلب جيش التحرير على السلطان، كما ينقلب على أي شخص يهدد سيادة المغرب. لكنه لم يعتقد أن هذا الوضع يمكن أن ينشأ لأنه يعتمد، من بين أمور أخرى، على الأمير (الوريث) الذي سيقوم، إذا لزم الأمر، بعزل والده وتولي السلطة حتى يستمر المغرب في المسار الذي بدأه ».

11. يتكلم المحجوبي إحرضان في المجلد الأول من مذكرات (ه) 119، p. 2013، Editions du Regard، Mémoires، يتكلم عن لجوء الدكتور الخطيب إلى تطوان « ليس بهدف الفرار بل بهدف المقاومة ». وقد نشر زكي مبارك في مقاله عن إجازة مرور اللجوء السياسي لأحد الرجال الأكثر نفوذاً في جيش التحرير الوطني، عباس مُساعدي، الذي كان اغتياله في جوان 1956، على ما يبدو على يد أعضاء من حزب الاستقلال، من بين أسباب انتفاضة الريف لعام 1958.

تقرّب عبد الكريم من إسبانيا حول فرناندو بي دي كامبرا

إن كتاب فرناندو ب. دي كامبرا، Cuando Abdelkrim quiso negociar con Franco، عندما أراد عبد الكريم التفاوض مع فرانكو)، لم يؤلّد الاهتمام الذي كان يستحقه عندما نُشر في عام 1981. اعتقد الكثيرون أن مقارنة من هذا النوع كانت مستبعدة؛ وتم الحكم على الكتاب من خلال الطابع المثير للعنوان الذي أعطته له دار نشر كارالت، وكذلك من خلال الإيحاءات الفرانكوية لمؤلّفه. خلال السنوات التي تلت ذلك، سقط الكتاب في طيّ النسيان وتجاهلته الببليوغرافيا حول عبد الكريم.

يجدر تحليل من هو الصحفي والكاتب فرناندو بي دي كامبرا المولود عام 1899¹². ظهر أول خبر زمني عن نشاطه في الجريدة الرسمية لوزارة البحرية *Diario Oficial del Ministerio de Marina*، في 12 سبتمبر 1942. يُذكر هناك بصفته « القاضي الدائم للقيادة العسكرية لبحرية تاراغونا ». يتضح ولعه بالموضوعات المتعلقة بتاريخ البحرية الإسبانية من خلال أعماله الأولى المنشورة في سنوات الحرب العالمية وإلى غاية خمسينيات القرن الماضي¹³. قاده حبه للأدب إلى الاحتكاك بعالم المسرح¹⁴. وأصبح، بين عامي 1953 و1959، مراسلا لدى صحيفة « لافانغارديا إسبانيولا » *La Vanguardia Española* في الشرق الأوسط ومقرها في القاهرة. بدأ بنشر تقارير عن يوغسلافيا في عهد تيتو، وتقلبات السياسة المصرية مع مقابلات مع عبد الناصر وسجلات عن تفكيك الوجود البريطاني في السويس والحرب التي تلت ذلك. أُتيحت له الفرصة في القاهرة للتعرف على عبد الكريم وإجراء مقابلة معه، على الرغم من أنه لن ينشر أي شيء عن هذه المقابلة في جريدته. فبالنسبة لهذا الأخير، كان الأمر

12. حسب مجلة *Tiempo de Historia*. نشر في هذه المجلة أربعة مقالات عن جوايسس أتراك والنزاع القبرصي والملكية اليونانية ومفتي القدس بين عامي 1975 و1977.

13. *Frente al mar. Singladuras de guerra*, Yunque 1940; *Historias de la mar en guerra*, Mar, Barcelona 1940; *El crucero 'Balears'*, Rovira 1941; *Don Alvaro de Bazán. Almirante de España*, Ed. Nacional 1943; *La rica hembra capitana*, Ed. Nacional 1944; *Dos tumbas en Normandía*, Ed. Vives 1946; *Roger de Flor y sus almogávares*, Ed. Nacional 1950.

حول الغواص غونثر براين. *El camino de Scapa Flow*, Ed. Nacional 1942 وكذلك اقتباس ومقدمة

14. كان اسم كامبرا Cambra يظهر في ملصقة مسرح بوليورما Poliorama في برشلونة في 25 أوت 1951 باعتبارها الشخص الذي قام باقتباس مسرحية *Vuelta al mundo* لـ C.G. Viola. في فيفري من العام نفسه، ورد في صحيفة لافانغوارديا إسبانيولا *La Vanguardia Española* أن كامبرا أُصيب في حادث أثناء نقله بسيارة أجرة إلى برشلونة مع الممثل أليخاندرولو *Alejandro Ulloa*.

يتعلق بـ « مسافر لا يكل ولا يملّ وكذلك صحفي مشهور ذو حس رفيع للأبناء يميل خاصة إلى الربورتاج الكبير¹⁵ ».«

نشر، في عام 1962، رواية « الصيف المصري الطويل »¹⁶ *El largo verano egipcio*، ولكن لم يعد إلى كتابة المقالات حتى ستينيات القرن الماضي مع مقال « مغامرة البترول »¹⁷ *La aventura del petróleo* و« هومو سوفيتيكوس. الحياة الحالية في روسيا »¹⁸ *Homo sovieticus. La vida real en Rusia*. لم يتخل عن عمله الصحفي كما يتضح من كتاباته لصحيفة الإسبانيول *El Español*. ويعود تاريخ تعاونه مع مجلتي « نويسترو تيمبو »¹⁹ *Nuestro tiempo* و« تيمبو دي إيستوريا » *Tiempo de Historia* إلى ستينيات القرن العشرين.

عبد الكريم وإسبانيا حسب كامبرا في خمسينيات القرن العشرين

في أرشيف مؤسسة فرانسيسكو فرانكو التي لم يكن يبذل، في ذلك الزمن، أنها كانت تحترم قواعد السرية المرتبطة بعلم الأرشيف الإسباني²⁰، وهو ما كان مصدر سعادة بالنسبة للباحثين، وجَدْتُ، في نوفمبر 2007، تقريراً مكتوباً في أوت 1958 بقلم فرناندو ب. دي كامبرا حول المقابلات التي أجراها مع عبد الكريم الخطابي، بالإضافة إلى وثائق أخرى حول علاقة هذا الأخير بالملحق العسكري للسفارة الإسبانية في القاهرة.

يتعلق الأمر بتقرير من ثماني صفحات وملخص أخير من صفحتين؛ مسبقاً بمذكرة تفسيرية وموجز من نوع ما يُقدم معلومات عن اتصالات كامبرا في القاهرة مع عائلة عبد الكريم الخطابي والأمير نفسه، بين عامي 1954 و1958، أي عشية انتفاضة الريف. نجد أيضاً رسالة من الملحق العسكري الإسباني، لويس كانو بورتال²¹ Luis

15. جريدة لافانغاريا إسبانيولا، 18 نوفمبر 1953، في مقدمة مقال حول يوغسلافيا.

16. Mateu, Barcelona 1962.

17. Bruguera, Barcelona 1972.

18. Ed. Petronio, Barcelona 1975.

19. Sur des sous-marins, septembre de 1971, número 207.

20. الذي ساهم فيه الوزير السابق ميغيل أنخيل موراتينوس Miguel Ángel Moratinos بشكل سلبي للغاية من خلال اتفاقه المشهور وهو "اتفاق بشأن سياسة أمن المعلومات لوزارة الخارجية والتعاون والذي يتم بموجبه تصنيف بعض الأمور وفقاً لقانون الأسرار الرسمية" المؤرخ بتاريخ 15 أكتوبر 2010.

21. مألقة -1907 مدريد 1981. رجل عسكري مختص في الدراسات الإفريقية تدرّب كملازم في المغرب بعد تخرجه من أكاديمية توليدو حتى اندلاع الحرب الأهلية. منذ نهاية هذه الحرب، كان ضابطاً موثقاً به في المجلس العسكري لرئيس الدولة حتى عام 1943. شغل مناصب مختلفة في هيئة الأركان حتى عام 1954 عندما تم تعيينه ملحقاً عسكرياً في عدة

دفاع الجنرال فرانكو، بتاريخ 25 جانفي 1957²²، ونسخة من وثيقة من عبد الكريم أحضرها ابنه إلى الملحق²³.

يعود التقرير الذي كتبه كامبرا، في عام 1958²⁴، إلى أول اتصال له بالأمير والذي يرجع تاريخه إلى النصف الأول من ماي 1954، حيث أخبره عبد الكريم برغبته في التقرب من إسبانيا بهدف « إثارة انتفاضة في الريف ضد الفرنسيين ». كان يسعى إلى التواصل مباشرة مع فرانكو، وتجنب القيام بذلك من خلال السفارة الإسبانية في القاهرة حيث كان يعتبر، وفقاً لكامبرا، « مومياء على قيد الحياة من ماض ولى »، « بدون سلطة أو فرصة لاستعادتها ولا لتمثيل أي شيء في المستقبل ».

وفقاً لنسخة المقابلة الواردة في كتاب « عندما أراد عبد الكريم التفاوض مع فرانكو »، يمكن الاستنتاج بأن ناصر نفسه هو الذي اقترح الاجتماع مع الأمير؛ خلال مقابلة يُزعم أنها جرت في مقر إقامته في أبريل 1954²⁵. كان الرائد أمين شاكر سيقوم بترتيب الاجتماع الذي، بحسب ناصر، قد « يساهم في خلق وضعية مريحة أكثر بالنسبة للإسبان في المغرب »²⁶.

وفقاً لتقرير كامبرا، « كان ناصر يحتفظ بعبد الكريم باعتباره » ورقة رابحة « في لعبة شطرنج محتملة طويلة المدى ». في عام 1954، وصف زعيم الريف سلطان

دول من بينها القاهرة. ويشهد توثيق وزارة الخارجية على ذلك بصفة المعني شغل منصب مقدم لهيئة الأركان المتمركزة في القاهرة بين عامي 1957 و1959. انظر قاعدة بيانات السياسة الخارجية للعالم العربي والإسلامي. <https://bdpexonline.org/acerca.php> في مرحلته الأخيرة، شغل مناصب ثقة مع رئيس الدولة ووصل إلى رتبة جنرال. كان بعد تقاعده، خلال الفترة الانتقالية الأولى في إسبانيا، قريباً من بلاس بينار Blas Piña ونشر العديد من المقالات في الصحافة اليمينية المتطرفة تحت الإسمين المستعارين « خيرخيس » و « سباروس » Sparos. انظر: Diccionario biográfico de la RAH. 22. بعد شهر واحد فقط، في 25 فيفري 1957، ترك الجنرال منصبه في الوزارة وحل محله الجنرال أنطونيو باروسو Antonio Barroso. يمكننا أن نتساءل عما إذا كان هذا التوقف يتعلق بالاتصالات مع عبد الكريم التي اعتبرها فرانكو غير مناسبة. 23. لم يُذكر ما إذا تعلق الأمر بعبد المؤمن، الابن البكر، أو عبد السلام أو إدريس، الأصغر. 24. التقرير غير مؤرخ، لكن بعض المواضيع المشار إليها تعود إلى ماي 1958. يظهر عنوان الوثيقة، في صفحة منفصلة، عنوان كامبرا:

« Sr. CAMBRA. Teléf. 256256. Plaza de Tetuán, 10. Barcelona »

25. كانت المقابلة مع الرئيس في الواقع لقاء قصيرا ذكره في العدد الأول من العمود الذي نشره كامبرا في جريدة لافانغريدا إسبانيولا La Vanguardia Española، في 11 أبريل 1954، تحت عنوان « أيام حاسمة لمصر ». في 15 أوت 1954، نشر في الجريدة باستفاضة كبيرة « مقابلة مع العقيد جمال عبد الناصر » إثر لقاء جديد. لم يذكر حديثه مع عبد الكريم في هذه المقالات. نجد، في الكتاب المنشور عام 1981، في الصفحة 36 النص التالي: « الآن، في خريف عام 1975، بعد 22 عامًا من ذكرى المقابلة، واليوم الثاني عشر لوفاة عبد الكريم الخطابي في القاهرة [هكذا وردت]، أنا أدون لأول مرة أحداث هذه الليلة الصيفية ».

26. Cambra, *Op.cit.*, p. 14.

المغرب بـ «المغتصب» معتبراً إياه صديقاً للفرنسيين، على الرغم من حقيقة أن هذا الأخير كان في ذلك الوقت منفياً في مدغشقر. كان عبد الكريم يرتاب من حزب الاستقلال وزعيمه علال الفاسي رغم محاولات هذا الأخير الاقتراب من زعيم الريف.

وفقاً للملف كان مشروع عبد الكريم، عام 1954، يتمثل فيما يلي:

«إثارة انتفاضة قبائل الريف التي حافظ معها على اتصالات سرية. إعلان قيام جمهورية الريف التي من شأنها أن "تحرر" المغرب كله من الحماية الفرنسية، وحتى القطاع الوهراني والجزائر بأكملها، وتشكيل دولة حرة تحت التأثير «العربي». كان يطلب من أجل تحقيق ذلك "المساعدة المعنوية" من إسبانيا، بعبارة أخرى، أن تغض هذه الأخيرة الطرف وتسهّل إنزال المحرضين والأسلحة على ساحل المحمية الإسبانية. ستقوم إسبانيا، في وقت لاحق، بإخلاء منطقة الحماية الخاصة بها.»

كان الاتصال بجهة التحرير الوطني، التي كان ستبدأ نضالها من أجل التحرير في نوفمبر من العام نفسه، جزءاً من المشروع. لقد رأينا كيف تم التوقيع على البيان الأول لجيش التحرير الوطني المغربي من قبل الجبهة الجزائرية كذلك. ويكون عبد الكريم قد تكلم في هذه المقابلات المبكرة عن سبّنة ومليلية حسب كامبرا كما يلي:

«إن سبّنة ومليلية مكانان احتلتهما إسبانيا لقرون ومعظم سكانها إسبانيون. لن نناقش هذا أبداً. لن نطلب منهم الرحيل، لأنني أعني أنه يمكننا العيش في سلام وانسجام مع "أشقائنا الإسبان" (هكذا وردت).»

إن بقية هذه المقابلات لا تظهر في التقرير. يروي كامبرا في كتابه أنه أبلغ السفارة وأنه كان على اتصال بأجهزة الإعلام المصرية المهتمة باللقاء، والتي يبدو أنها كانت مستعدة للترويج لمشروع عبد الكريم، خاصة بعد اختفاء اللواء نجيب من الساحة المصرية. كان في الواقع مشروع عبد الناصر، حسب كامبرا، يتمثل في «تحرير المغرب من العلويين». قدم له محاوره من أجهزة المخابرات المصرية عرضاً غريباً تضمن استطلاعاً عند الكلاوي، العدو اللدود للسلطان، حول موقفه من مطالبات عبد الكريم.

يكون قد انتهى المطاف بكامبرا بالانتقال إلى المغرب للقاء سرا باباشا مراكش السابق في «خيمة ريفية على بعد 200 متر من المسار الذي يمتد من الطريق P-24 إلى S-502»، في وسط الأطلس، ليس ببعيد عن قسبة تلوات. رد كلاوي أنه يجب انتظار تدهور الوضع وعندها فقط سيعيد النظر في الاتفاقية التي أبرمها مع فرنسا.

لم يذكر التقرير كلمة واحدة عن تمرد جيش التحرير الوطني المغربي في أكتوبر 1955. انتقل مباشرة إلى الاستقلال، مع المحاولات الفاشلة للتوصل إلى إبرام اتفاقات بين محمد الخامس وناصر، وعروض الملك لعبد الكريم بالذهاب إلى المغرب التي رفضها هذا الأخير بسبب الملاحقات التي « كان يتعرّض لها العديد من وجهاء الريف، ولا سيما بني أورياغيل، باسم الرباط ».

في ظل استمرار المصالح الفرنسية في المغرب، لم يتخل عبد الكريم عن فكرته في الترويج لانتفاضة قبائل الريف وتوسيعها إلى مناطق أخرى من المغرب. وبحسب التقرير، فقد كان يُعَوّل على تعاون قطاع من جيش التحرير وعلى مساعدة جبهة التحرير الوطني الجزائرية المهتمة بفتح جبهة جديدة على الحدود المغربية الجزائرية؛ لتخفيف التوتر الناشئ في الحدود الجزائرية التونسية بعد حادثة ساقية سيدي يوسف التي قصفها الفرنسيون في فيفري 1958. ويؤكد التقرير أنه خلال اجتماع لأركان جبهة التحرير الوطني في القاهرة في ماي 1958، الذي حضره عضوان من جيش التحرير الوطني المغربي، تم التوصل إلى اتفاق لدمج:

« الانتفاضة في المغرب وفتح جبهة ثانية (إذا لزم الأمر لجبهة التحرير الوطني الجزائري نظرا لموقف بورقيبة المتردد) من خلال العمل المشترك. تقترح جبهة التحرير الوطني ممارسة الضغط على الحدود المغربية الجزائرية لتسهيل الانقلاب الذي سيتم تنفيذه في المغرب من قبل الريفيين وعناصر من جيش التحرير ».

وفقاً لكتابه، أبلغ كامبرا عن مقابلاته مع السلطات الإسبانية مستخدماً مهنته كصحفي. كان آخر محاور له في وزارة الإعلام والسياحة الإسبانية هو وكيل الوزارة خوسيه لويس فيلار بالاسي José Luis Villar Palasí، الذي شغل هذا المنصب من 1957 إلى 1962. قدّم الوزير، غابرييل أرياس سالغادو Gabriel Arias Salgado، نصيحة بكتابة تقرير حول الموضوع لتقديمه إلى فرانكو، وهو ما قام به كامبرا. رفض الكوديلو²⁷ « Caudillo » رفضاً قاطعاً: « لا أريد أن أعرف شيئاً عن عبد الكريم: إنه خائن! »²⁸.

لا تنتهي القصة هنا. على الرغم من الرفض الإسباني للمشاركة، فإن إدريس بن عبد الكريم، الذي يقدمه التقرير على أنه عميل لدى جبهة التحرير الوطني، والذي كان يقيم في ميونيخ في بداية عام 1957 لإدارة عمليات إرسال الأسلحة، اقترح على كامبرا، الذي انتقل إلى ألمانيا، أن يتعاون معهم في العملية. لكن الصحفي-الجاسوس لم يوافق.

27. ملاحظة المترجمة: لقب باللغة الإسبانية كان يُطلق على الجنرال الإسباني فرانثيسكو فرانكو، وغيره من الجنرالات، بمعنى العسكري الدكتاتوري أو الرجل القوي أو المستبد وهو لقب كان يفتخر به الجنرال مع أنه يُستعمل عادة لانتقاد السلطة الحاكمة.

28. Cambra, página 210.

تعرف كامبرا، خلال هذا اللقاء في ميونيخ، على حيدر أورياشي الذي قُدِّم باعتباره سكرتيراً ومبعوثاً من الأمير، الذي كان على اتصال مع وجهاء الريف خلال رحلاته إلى المغرب في بداية عام 1957 ومع السلطات الإسبانية، لا سيَّما مع الجنرال أوجستين مونيوز غرانديس Agustín Muñoz Grandes الذي كان، بحسب البعض، يتعاطف مع قضيته²⁹. كان أورياشي قد أجرى اتصالات في أوت 1957 مع الجنرال الذي دعاه إلى مدريد لإجراء مقابلة. بعد أيام قليلة، اعتقلته الشرطة الإسبانية وقضى عشرة أيام في المديرية العامة للأمن. أُطلق سراحه بفضل تدخل مونيوز غرانديز، ولكن تم نقله مباشرة إلى المطار وترحيله إلى فرانكفورت.

صادت الشرطة ممتلكات كانت في مكان إقامته، من بينها «قوائم بأسماء الريفيين وعناوينهم». وانهت هذه القوائم «لأسباب مجهولة»، بحسب التقرير، بين أيدي السلطات في الرباط التي اعتقلت الريفيين ومن بينهم أحد أشقاء أورياشي وطبقت قمعاً «شديد القسوة». في التواريخ نفسها، كانت هناك محاولة جديدة للتقارب بين المغرب ومصر من خلال اغتنام فرصة الاحتفال بالذكرى الخامسة للثورة المصرية التي دعا إليها عبد الناصر رؤساء دول عربية.

ذهب الأمير حسن إلى هناك بصفته ممثلاً للمغرب، لكن لم يتوصل إلى اتفاق³⁰ خلال محادثاته مع الرئيس. وبحسب التقرير، فإن هذه الحقيقة هي التي دفعت ناصر إلى اختيار «لعبة ورقة عبد الكريم». ووفقاً لهذه الوثيقة نفسها، كانت النتيجة هي تأجيل خطة الانتفاضة المحلية المخططة لربيع عام 1958، بمساعدة الأسلحة التي حصل عليها إدريس بن عبد الكريم في ألمانيا الشرقية وتلك العائدة لجبهة التحرير الوطني، «لأنهم كانوا في القاهرة على استعداد لتمويل الانتفاضة والتحضير لها لمدى أطول».

ذهب نجل آخر لعبد الكريم، عبد السلام، وهو نقيب في الجيش المصري³¹، إلى الرباط في ماي 1958 لإجراء مقابلة مع محمد الخامس، وهي مقابلة لم تسفر عن أي اتفاق³².

29. في الكتاب يتحدث أورياشي، الذي يظهر باعتباره محمد علي، عن اتصالاته «بشخصيات النظام المتعاطفين مع قضيتنا والذين يكرهون الملك محمد بن يوسف الذي يعتبرون وجوده واستمراره مكرهاً من أجل وجود إسبانيا في إفريقيا وحماية مصالحها»، الصفحة 235

30. خلال العرض العسكري الذي أقيم بهذه المناسبة، كان عبد الكريم في الشرفة الرسمية بينما كان مولي حسن والوفد المرافق له في الخلف (ص 229).

تضيف الوثيقة أنه كان عضواً في مكتب الإعلام المصري (ص 229).

31. تضيف الوثيقة أنه كان عضواً في مكتب الإعلام المصري.

32. في 1 أبريل 1958، نشرت صحيفة «لافانغوارديا إسبانيولا» La Vanguardia Española أن «عبد الكريم يعود إلى المغرب». وبحسب يونانيند برس في القاهرة، فقد أعاد محمد الخامس أراضي عبد الكريم إلى عائلته.

بعد عودته مرورا بإسبانيا، مكث لفترة في مدريد حيث أجرى مقابلات يومية مع العقيد فهمي، وهو ملحق عسكري في سفارة الجمهورية العربية المتحدة.

تفاقم الخلاف بين عبد الكريم ومحمد الخامس عندما تولى ديغول السلطة في فرنسا في 1 جويلية 1958. ونشرت وكالة الأنباء الإسبانية بالقاهرة خبراً في الثاني عشر من الشهر نفسه جاء فيه أن « عبد الكريم يدعو إلى الاتحاد ضد فرنسا » وبلغت عن دعوته للمغرب وتونس والجزائر للاتحاد في نضالهم ضدها. كما حث هذا الأخير القادة المغاربة والتونسيون على الاعتراف بأخطائهم الماضية من خلال الرد على تحدي ديغول بكفاح مسلح موحد.

اندلعت انتفاضة الريف أخيراً في أكتوبر 1958. كانت هذه الانتفاضة، بالنسبة للحكومة المغربية، التي ينتمي أغلب أعضائها إلى حزب الاستقلال، مؤامرة حرضت عليها إسبانيا للحفاظ على هيمنتها على المنطقة³³.

بالنسبة للمُخبر، وصلت خطة عبد الكريم الأصلية، بدعم مصري، إلى « أبعاد انقلابية ». فقد قارنها بما حدث عندها في العراق والاضطرابات في لبنان والأردن³⁴. وأضاف أن جزء كبير من جيش التحرير الوطني المغربي (الذي نسب إليه اتصالات مع العملاء الشيوعيين) ومن جبهة التحرير الوطني كان وصفه بالـ « مؤامرة ». وكان عبد الكريم في نظره القائد البارز « لأنه حافظ على اعتباره سليماً برفضه باستمرار الاستسلام ».

إن النسخة التاريخية الأكثر شيوعاً تعزو سبب اندلاع الانتفاضة إلى نقل جثة المقاوم عباس المساعدي، الذي اغتيل على يد حزب الاستقلال في جوان 1956، لدفنه في منطقته، وهي عملية قام بها كل من الدكتور الخطيب ومحجوبي أحردان، قائدا الحركة الشعبية ذي النزعة البربرية. ويرى آخرون أنها مناورة من ولي العهد لتبرير قمع مجموعات الشعب النشطة في مناطق معينة من المغرب. لكن انتفاضة الريف لديها خلفيّة تخضع إلى الاستياء العميق الناجم عن عملية تنميط البلد التي قادها حزب الاستقلال منذ الاستقلال. ويبدو أن القائد البارز لهذه القصة هو محمد سلام أمزيان، عضو جيش التحرير الوطني المغربي وحزب الشورى والاستقلال، الذي تعرّض إلى أعمال انتقامية من قبل حكومة حزب

33. تم اختيار عنوان « المؤامرة » للمقال الذي نشرته صحيفة الاستقلال في 24 أكتوبر 1958. انظر المذكرة الإعلامية للسياسة الخارجية لوزارة الشؤون الخارجية بعنوان « الحملة المغربية ضد إسبانيا بمناسبة أحداث الريف », بتاريخ 11 فيفري 1959.

34. نشر كامبرا، في 8 جويلية 1958 بصحيفة « لافانغارديا إسبايولا », مقالا بعنوان « الحرب "الأهلية الصغيرة" اللبنانية. تساؤلات وحكايات » « La "pequeña guerra civil" libanesa. Interrogantes y anécdotas »

الاستقلال و« كان مفتوناً بالأمر الخطابي وناصر، وكان مقتنعا اقتناعاً بالأفكار والآمال التي جسدتها هاتين الشخصيتين»³⁵.

قام الأمير الحسن، لمواجهة هذه الانتفاضة التي شارك فيها بضعة آلاف من الرجال، بقيادة حركة، في 26 ديسمبر 1958، قوامها 20 ألف رجل لسحق التمرد. أصدر الملك محمد الخامس نفسه إنذاراً للمتمردين في خطاب ألقاه في 5 جانفي 1959، في حين كان القمع مستمرا وتم فرض حصار على الإعلام.

حدثت كل هذه الوقائع في خضم أزمة حكومة بلافريج، مما تسبب في استنزاف حزب الاستقلال الذي سعى إليه الملك الذي عين، في نهاية المطاف في 24 ديسمبر³⁶ 1958، عبد الله إبراهيم، الذي ينتمي إلى الجناح اليساري للحزب، رئيساً للحكومة.

بعد سحق التمرد بعنف، نشر عبد الكريم في 6 فيفري 1959 بالقاهرة « بياناً للشعب المغربي المقاتل » متهما الملك بإبادة متمردي الريف على يد القوات الجوية الفرنسية، ومتهما علال الفاسي بالتواطؤ مع العدو و« الخيانة » و« إغراق البلاد في الفوضى لتعزيز سيطرة فرنسا وعملائها»³⁷.

الجزال مونيوث غراندس حول مؤامرة الريف

إن الوثيقة الأخرى التي تم العثور عليها في مؤسسة فرانسيسكو فرانكو هي رسالة الملحق العسكري بالسفارة الإسبانية في القاهرة لويس كانو بورتال Luis Cano Portal، المؤرخة بتاريخ 25 جانفي 1957، وهي رسالة موجّهة إلى وزير الدفاع الجزال مونيوث غراندس لإبلاغه بمقابلة مع ابن عبد الكريم³⁸ الذي أعطاه وثيقة من زعيم الريف نفسه. وبحسب ابنه فإن عبد الكريم:

35. Nabil Mouline, « Qui será l'État ? » Le soulèvement du Rif reconsidéré (1958-1959)، دفتر مركز جاك بيرك،

<https://cjb.hypotheses.org/186>. فر أمزيان، في نهاية المطاف، إلى إسبانيا عبر مليبية وذهب بعد ذلك إلى مصر والعراق.

36. من أجل الاطلاع على مقال ممتاز حول الأخبار السياسية لأحداث الريف انظر:

Ma Concepción Ybarra, « La rebelión del Rif (1958-1959) », en Espacio, Tiempo y Forma, Serie V. Historia Contemporánea, 10 (1997), pp. 333-347.

37. M.C. Ybarra, *Op.cit.*, p 345.

38. لم تُحدّد هوية الابن. من المحتمل أن يكون عبد السلام، الذي كان جندياً في الجيش المصري، والذي قيل عنه: « كان الابن مفيداً جداً لي حتى الآن، وقد أطلعت من خلاله على الجوانب الداخلية لمصر ».

« ... لن يعود إلى المغرب رغم اقتراحات السلطان إلا إذا توفرت الشروط المقدّمة في الوثيقة. إنه ينتظر أن يقَدّم له عبد الخالق تورييس³⁹ مقترحات جديدة عند وصوله ثم قد يتحدث معي مرة أخرى »⁴⁰.

في موضوع العلاقة المتوترة بين عبد الكريم والسلطان، يشير الملاحق العسكري، في هذه الرسالة الإخبارية التي سلّمها له ابن عبد الكريم، إلى وجود بؤرة تمرد اندلع في الأطلس « ضد الحكومة المغربية وحزب الاستقلال الذي كانت لديه معلومة مباشرة عنه. أخبرني أنها بداية ما سيحدث إذا واصلت فرنسا هيمنتها هناك »⁴¹.
تنص الوثيقة، التي قدمها ابن عبد الكريم للملاحق والمؤرخة في 24 جانفي 1957، على ما يلي: « نسخة من وثيقة مقدمة من قبل محمد بن عبد الكريم يصف فيها الوضع الراهن في المغرب من وجهة نظره ».

39. عُيّن سفيراً للمغرب في مصر في 28 مارس 1957.

40. عُثِرَ على نسخة من الرسالة في مؤسسة فرانسيسكو فرانكو، المرجع 22613. تشير الرسالة إلى منح الوزارة الإسبانية منحة دراسية لابن شقيق عبد الكريم، عمر. يعترف لويس كانو بأنه « يلعب » بهذه المنحة « كسلاح ليرافقه أكثر ويعرف كل خطواته ».

41. نواة التمرد التي أشار إليها قد تكون تلك التي بدأها عدي أوبيهي في جانفي 1957.

EL AGILADO MILITAR A LA
REINADA DE ESPAÑA.

El Cairo, 25 de Enero de 1957

Excmo. Sr. Don. Agustín Muñoz Grandes
Ministro del Ejército
E. S. P. I. S.

El querido y respetado General y Ministro:

32613
Como continuación de mi carta anterior, hoy vuelvo a escribirle, para adjuntarle las manifestaciones que Abdelkrim, no ha remitido por su hijo y en las que dice cual es su posición política actual. Su hijo, al traducérselas, me dijo que su padre seguiría firme en esta idea; que él no volverá a Marruecos por mucho que se lo proponga el Sultán, si no se dan las condiciones que apunta en ese documento. El espera que Abdeljalak Ferras, cuando llegue, le traiga nuevas propuestas y ha quedado en que llegado ese momento quisiera volver a hablar conmigo. Como no pienso, si quiero dejarle de la mano, le he contestado que encantado le haría, que no fíe de llegar yo, pues siempre estoy dispuesto a visitarlo.

He sabido por la Embajada que a su sobrino Omar le concederán la beca de estudios que pedía. Como esta noticia es todavía oficial, esperaré a conocerla oficialmente, para jugar con ella como arma de tenerlo aún más en contacto conmigo y conocer todos sus pasos. Desde luego, en este sentido el hijo me sirve hasta el momento de bastante utilidad y por el estoy también al tanto de la interior de Egipto.

Por cierto que me dijo también que en la zona francesa y concretamente en el Atlas había ya un foco de rebelión contra el Gobierno marroquí y el Istiqlal, del que él tenía noticias directas. Este es el principio -me dijo- de lo que pasará, si Francia sigue débilmente allí.

Al preguntarle yo si ese pretendido foco de rebelión no estaría apoyado por los amigos del Oulama, yo que era muy significativa la zona donde se había producido, me contestó: "no lo sé; pero, aunque así fuera, nosotros debemos aprovechar cuantos movimientos de protesta surjan, si ellos están con la simpatía francesa; que otra cosa no es lo que con trajes y caras de marroquíes se prestan al juego de Francia".

Hacia al General el saludo de su siempre leal y respetuoso subordinado que le quiere,

Firmado: LUIS CASO PORTAL.

تسمح الوثيقة المكونة من سبع صفحات مطبوعة، وتعود إلى ما قبل الأحداث المذكورة أعلاه، بتوضيح طريقة تفكير عبد الكريم، التي شاركه فيها العديد من وجهاء الريف الذين شاركوا في الانتفاضة في نهاية عام 1958 :

« على الرغم من إعلان استقلال المغرب، لا تزال فرنسا تمارس رقابة مشددة على الشؤون المغربية كما فعلت في ظل الحماية »⁴².

يُحدّد عبد الكريم وجود 80 ألف جندي فرنسي في الأراضي المغربية في تلك الفترة، وتأتي ضباط فرنسيين للجيش الملكي الجديد، وإشراف مسؤولين من الحاضرة السابقة على الإدارة المغربية. وينتقد سيطرة البنوك والجماعات الاقتصادية للقوة الاستعمارية السابقة على الاقتصاد. ويصف بـ « تبعية المغرب لفرنسا » الوضع الذي تمارسه عائلة ملكية لديها « تعاطف واضح مع الفرانكوفيليين » وطبقة سياسية مغربية متواطئة، وأوضح مثال على ذلك هو ما سماه بـ « ازدواجية قادة حزب الاستقلال ».

حسب هذا النص إن استقلال المغرب، في نظر عبد الكريم، لم يكن إلا حيلة من الحكومة الفرنسية بهدف « إيقاف القتال في الريف بسرعة، والذي كان يكتسب أبعاداً مقلقة ويُعرّض الوجود الفرنسي في المغرب للخطر ». نظرا إلى تاريخ الوثيقة (جانفي 1957)، لا شك في أنه ضخم أبعاد القتال في الريف، والذي لم يندلع إلا بضعة أشهر فيما بعد.

أصرت الوثيقة إصرارا على الهدف الفرنسي المتمثل في عدم فصل المشاكل الشمال إفريقية، معتبرة مصالحها في بلدان المغرب الكبير الثلاثة بمثابة « كتلة غير قابلة للتجزئة »، مع العلم أنه « إذا أفلت أحد البلدان الثلاثة من سيطرتها، فإن الدولتين الأخرين ستتبعان نفس المسار حتماً في أقرب الآجال ». هنا تكمن استراتيجية اللجنة القديمة المستوحاة من عبد الكريم، التي تعتبر أنه لا يمكن تحقيق النضال التحريري في المغرب الكبير إلا بالاستقلال التام للدول الثلاث.

تنتقل الوثيقة بعد ذلك إلى مسألة إسبانيا حول دورها « الدوني » مقارنة بفرنسا التي نجحت في استقطاب « قسم كبير من الرأي العام المغربي نحو سياسة موالية لفرنسا ». ويُحدّر من أن التوحيد التدريجي للبلاد سينتج عنه :

42. تحمل الوثيقة رقم 88 من مكتب الملحق العسكري بالسفارة الإسبانية بالقاهرة.

« امتداد سلطة الحكومة الموالية لفرنسا في الرباط إلى هذه المنطقة والقضاء تدريجياً على المصالح الإسبانية في المغرب، وهو ما سيرضي فرنسا إلى حد كبير، والتي لم تكن تتصور أبداً تحقيق هذا الحلم خلال فترة الحماية. وبذلك ستحتفظ الحكومة الفرنسية بكامل نفوذها بفضل السلطان ووزرائه ».

إن أفضل دليل لهذه التصريحات هو غياب « أي ممثل عن المنطقة الشمالية في الوزارة المغربية ». هذه الحقيقة تثير الدهشة بالنسبة لعبد الكريم، لأنه بالنسبة له، فإن عودة السلطان من المنفى واستقلال البلاد نفسه حدثاً بفضل « مقاتلي الريف، المتمركزين بشكل أساسي في مثلث بوريد- آكنول- تيزي وسلي ».

ويتساءل :

« أليس من المثير للدهشة أن إسبانيا، التي لم تتخذ أي إجراء ضد هؤلاء المقاتلين (على العكس تماماً)، سمحت هي أيضاً لفرنسا والحكومة الموالية لها في الرباط بأن تتخلص منها؟ ».

بدأت خيبة الأمل التدريجية للشعب المغربي نتيجة إدراكه لكل هذا، وبدأ يفقد الثقة التي وضعها في السلطان الذي تم التشكيك في حسن نيته في حادثة اختطاف فرنسا، في أكتوبر 1956، للطائرة التي كانت تقل القادة الجزائريين من المغرب إلى تونس. كانت محاولة السلطان التقرب من عائلة عبد الكريم دليلاً على سعيه للحصول على الدعم للتصدي لخيبة الأمل الشعبية. أما فيما يخص حزب الاستقلال، يقول التقرير: « انتهى به المطاف إلى ممارسة الرعب لكسب مناصرين ولا يتردد في اللجوء إلى الخطف والسجن والاعتقال ».

أما الجزء الأخير من كتابة عبد الكريم فهو دعوة لإسبانيا للتعاون « على أسس سليمة ومتينة لبناء عظمة شعوبنا معا وضمان سعادتهم » بهدف تحقيق « الاستقلال الحقيقي » و« طرد القوات الفرنسية من أرضنا ». ويؤكد أن الثلاثين عاماً التي مرت على أحداث الريف مَحَت « الذكريات السيئة من جانبنا »، لأن « عظمة شعوبنا تكمن في صداقة مغربية-إسبانية قوية وأخوية ».

يطلب عبد الكريم من إسبانيا أن تقوم بـ « لفتة صادقة وسخية » تُؤلِّد امتنان الشعب المغربي لها لأنه سيكون قادراً، بفضل إسبانيا، على « تحرير نفسه نهائياً

من الهيمنة التي تثقل كاهله منذ نصف قرن». وهكذا، ستنتهي الخلافات بين البلدين وستضمن إسبانيا فضاء تفضيليا لمصالحها « ليس في الريف فحسب، وإنما في جميع أنحاء المغرب ».

يتزامن التحليل حول فقدان إسبانيا لكل نفوذها في منطقة المحمية السابقة، ولا سيما الريف، مع المخاوف التي عبّر عنها مونيوث غرانديس لفرانكو في مذكرة موجودة أيضاً في هذه المؤسسة⁴³. إن الوثيقة تحتوي على انتقاد شديد ومعاينة للسلك الدبلوماسي وقلة اهتمامه وتلومه على « قضاء حياته في لعب التنس أو الجولف » وعلى أنه « كان يبدو مستسلماً للعدو » وترك « مواطنينا » في ضيق تام.

ويقول فيما يخص السفير قنصل الرباط في وقت الاستقلال، على الأرجح خوسيه فيليبى ألكوفر سوريدا José Felipe Alcover Sureda، ما يلي :

« تطلب منه الحكومة المغربية أسماءاً للتعاون في المناصب الإدارية، وتسمح للفرنسيين بشغل هذه المناصب. الجواب دائماً هو أن "إسبانيا ليس بها هؤلاء الرجال". إنهم يحتجزون أنفسهم في مكاتبهم وهمهم الوحيد هو مدريد ووزارتهم، لكنهم غافلون تماماً عن الواقع السياسي والاقتصادي في المغرب (...). بينما يعتمد الفرنسيون على آلاف الرجال المتميزين الذين يدافعون عن مصالحهم (...). إذا استمر هذا الوضع، فسيخرجوننا من منطقة الشمال، ليس سياسياً فحسب، هذا أقل شيء، وإنما اقتصادياً كذلك، وهو الشيء الوحيد الذي يمكننا الدفاع عنه حالياً ». لا يوجد وصف أفضل للأجواء التي سهلت سيطرة المغرب الفرنسي على الإسبان، مع سكان هجرهم « الحماة » السابقون. هنا يكمن أحد مفاتيح التخلي الذي حاول الريفيون أن ينتفضوا ضده.

خاتمة

بعد مرور خمسة وستين عاماً على استقلال المغرب، لا يزال عبد الكريم الخطابي يرقد في بلد منفاه الطوعي، مصر، دون أن توضّح الطبيعة الحقيقية لعلاقته مع الحكم الملكي المغربي. فقد حاول هذا الأخير، من جهته، عبثاً، ضمان عودة زعيم الريف إلى البلاد.

43. تحتوي الوثيقة، غير المؤرخة والمطبوعة على الآلة الكاتبة، على ملاحظة مكتوبة بخط اليد تقول: « إلى رئيس دولة جرال. مونيوث غرانديس ». يحمل المرجع 16930. وتحمل المخطوطة المطبوعة على الآلة الكاتبة عنوان: « نسخة من معلومات عن المغرب ». الوثيقة غير مؤرخة، ولكن وفقاً للأشخاص الذين تستشهد بهم والمناصب التي يشغلونها، قد يعود تاريخها إلى حوالي عام 1957.

وقد أُجبر على أن يعترف بعبد الكريم باعتباره شخصية مركزية في مقاومة الاستعمار، مع العلم أنه كان ولا يزال العلم الذي يلوح به البعض ضدها. عند توليه العرش، قام الملك الحالي بمبادرات للتقرب من العائلة خلال زيارته الأولى للريف في أكتوبر 1999، ومع ذلك، لم تفد في تصالح نهائيّ مع وطن عبد الكريم.

رهما بسبب هذا الخلاف الكامن، ظلت مغامرات عبد الكريم وانقلاباته مخفية أو غير معروفة جيداً ومُحيت، على أي حال، من التاريخ الرسمي لسنوات النضال من أجل الاستقلال. لقد حاولت في هذا المقال إلقاء بعض الضوء على هذه السنوات، مستندا إلى مصادر تتطلب بحثا متعمقا أكثر، لكنها تحاول إثبات كون الاستقلال الذي حصل عليه المغرب في النهاية، في عام 1956، لم يكن هو الذي ناضل عبد الكريم من أجله. لقد كان استقلالا غير كامل، ليس فقط من وجهة نظر الأراضي المغربية، ولكن أيضًا، وقبل كل شيء، من وجهة النظر الاقتصادية والهيكلية. إن التبعية المتبادلة مع فرنسا، والتي كانت العناصر الوطنية ترتاب منها بشدة وقت المفاوضات، تحولت إلى حقيقة في نهاية المطاف، وهي حقيقة كان عبد الكريم قد تصدى لها في السنوات التي أعقبت الاستقلال والتي كانت مصدر انتفاضة عام 1958. ما زلنا بحاجة إلى التعمق في الدور الذي استطاع عبد الكريم أن يلعبه في إعداد وتطوير هذه الانتفاضة التي كانت بني أورياغيل إحدى بؤرها الرئيسية. جاء تقرب عبد الكريم من إسبانيا في وقت كانت ترحب فيه الحماية الإسبانية بالمقاومة ضد فرنسا وتدعمها. امتدت الاتصالات إلى ما بعد استقلال المغرب، عندما بدت إسبانيا هي الخاسر في المغرب. لكن نظام فرانكو، الذي قام من خلال بعض كبار الضباط مثل الجنرال مونيوث غرانديس بتعزيز هذه الاتصالات، انتهى به الأمر إلى تجاهلها وحتى خيانتها باختياره لإبرام اتفاق مع المغرب الرسمي لمحمد الخامس.

كان فرناندو ب. دي كامبرا الوسيط في هذه العلاقة التي لم تظهر إلا بعد وفاة فرانكو في الكتاب المليء بالغموض الموسوم بـ « عندما أراد عبد الكريم التفاوض مع فرانكو ».

الكتابات التاريخية المغربية عن المقاومة الريفية للاحتلال الاستعماري (1921-1926)

ميمون أزيزا - جامعة مولاي إسماعيل - مكناس
شاكر تبهوت - جامعة محمد الخامس - الرباط

مقدمة

تعتبر المقاومة الريفية للاستعمارين الإسباني والفرنسي (1921-1926) من أهم الحركات المناهضة للاستعمار والتي كان لها صدى عالمياً. وقد حظي زعيمها محمد بن عبد الكريم الخطابي، منذ ما يقرب من قرن من الزمن، باهتمام العديد من المؤرخين والكتاب والأدباء. كما أن هذه المقاومة قد خلفت أثراً كبيراً في الأوساط الاجتماعية المغربية والأجنبية، نظراً لما حققته من نتائج إبان نشاطها في شمال المغرب. ولم ينحصر هذا الأثر في الأوساط الاجتماعية والسياسية فقط، بل انعكس كذلك على مستوى الكتابة التاريخية، حيث أنجزت مئات الدراسات في هذا الموضوع. ورغم كل ما أُلّف في موضوع المقاومة الريفية، مازال المؤرخون يدرسونها من زوايا مختلفة، وكأن موضوع المقاومة الريفية، بئر لا ينضب له معين. وبالإضافة إلى أبحاث المؤرخين استلهمت هذه المقاومة مجموعة من الأدباء، الذين وظفوها في بناء سردهم الروائي. وتجدر الإشارة في البداية إلى أن أغلب هذه الإصدارات كانت في الغالب عبارة عن قراءات في أعمال مؤرخ ما، أو قراءات في الكتب التي تؤرخ للمقاومة الريفية. ومن هذه الأعمال، المقالات التي كتبها الباحث عثمان بناني، ونسقتها ونشرها الباحث عبد الرحمان المودن في كتاب موسوم بـ « بين الفعل السياسي والبحث التاريخي ». فيها قدم الباحث قراءات لمجموعة من الكتب. وإلى جانب هذا النموذج

من الدراسات، هناك نمط آخر عمد إلى تجميع بعض النصوص التي تتناول موضوع المقاومة الريفية، ونقصد بالذات دراسة الباحثة فاطمة الجامعي الحبابي، الموسومة بـ « محمد عبد الكريم الخطابي في أحاديث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب ». ونود أن ننبه القارئ الكريم إلى أننا لن نتناول الأعمال الأدبية التي وظفت هذه المقاومة كموضوع من مواضيع بناء سردها القصصي أو خيالها الروائي¹.

كما أننا سنقتصر على الكتابات التي صدرت من استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1926 إلى مطلع القرن الحالي. وقد أنجزت خلال الفترة المذكورة، مئات الدراسات في هذا الموضوع². وسنسعى إلى فحص هذه الكتابات التاريخية من خلال مداخل عديدة. ولكون أن الفعل التاريخي هو فعل اجتماعي، ويتم في سياقات اجتماعية مختلفة، فقد ارتأينا أن نتعرف عن المؤرخين الذين أرخوا لهذه المقاومة، فما علاقتهم بالموضوع المؤرخ له؟ وإلى أي حد انعكس السياق الاجتماعي والسياسي للمؤرخين على كتاباتهم؟ وغيرها من الأسئلة التي تفرض نفسها على كل باحث يقارب هذه الإنتاج المعرفي.

وقصد مقارنة هذا الموضوع، ستركز المقالة أساساً على الذاكرة كمدخل نظري، لتحليل الكتابات التي تؤرخ لموضوع المقاومة الريفية. ولهذا الاختيار ما يبرره، فالدراسات في هذا الموضوع نادرة، كما أن مدخل الذاكرة، يمكّن من فهم أعمق في تحليل ممارسة الفعل التاريخي، نظراً لما يوفره من أدوات تحليلية عديدة ومتنوعة، توسع مجالات البحث وتثريه.

طبيعة هذه الكتابات التاريخية

يمكن التمييز بين أربعة أصناف أساسية في الكتابة التاريخية حول موضوع المقاومة الريفية:

1- الكتابات الذاكرية

ونقصد بها الكتابات التي حاولت أن تؤرخ للمقاومة الريفية من خلال الاعتماد الكلي أو الجزئي على الذاكرة، سواء كانت هذه الذاكرة عبارة عن مذكرات يومية كتبها المقاومون آنذاك إبان وقوع الأحداث، أو عبارة عن استعادة لذاكرة المقاومة بعد انتهائها. فما هي خصائص هذا الصنف من الكتابات؟ ومن أنتجها؟ وما هي الموضوعات التي ركز عليها أصحابها؟

1. أنظر مثلاً: أحمد برحو، بن عبد الكريم الخطابي وحرب الريف: أكبر ملحمة عرفها التاريخ، (طنجة: دار النشر كوراي، مطبعة إفزران، 2010).

2. علي الإدريسي، بن عبد الكريم الخطابي، ط. 2 (دون مكان النشر: منشورات ثيفرازن-أريف، مطبعة النجاح الجديدة، 2010). ص. 123.

1-1- أصحاب الكتابات الذاكرية

بعد استسلام الخطابي، ظهرت مجموعة من الكتابات التي تحاول أن تؤرخ للمقاومة الريفية، بالاعتماد على الذاكرة بشكل أساسي، والعامل المشترك بين مؤلفيها، هو أنهم شاركوا في حرب الريف وساهموا فيها. لكن تذكر هذه المقاومة، والتعبير عن ذلك اتخذ شكلين، حيث اختار البعض كتابة مذكراتهم، في حين اختار آخرون روايتها عن أشخاص آخرين. وعليه يمكن التمييز في منتجي الكتابات الذاكرية، بين صنفين :

أ- المتذكرون الرواة

كما أشرنا أعلاه، فإن بعض متذكري المقاومة الريفية، اختاروا التأريخ لهذه المقاومة، من خلال رواية أحداثها عن أشخاص آخرين، وهم من تكلفوا بتدوين ما روي لهم. ومن هؤلاء نجد محمد بن عبد الكريم الخطابي، قد روى على الصحفي الفرنسي روجر ماثيو Roger Mathieu مذكراته عن حرب الريف، إبان نقله إلى منفاه على ظهر باخرة « عبدة ». وأصدرها هذا الصحفي سنة 1927³. هذه المذكرات كما يتضح من خلال تناولها للأحداث، كانت عبارة عن سرد لما جرى من طرف الخطابي، تخللها أحياناً تدخل الصحفي الفرنسي، فأصبحت هذه المذكرات عبارة عن سؤال وجواب، فكثيراً ما ترد تعابير مثل : « فسألت عبد الكريم » أو « فطلبت من شقيقه أن يتحدث عنه... » إلخ.

لم يكتف مدون هذه المذكرات بالاختصار على تدوين ما قيل له فقط، بل في كثير من الأحيان كان يصف ملامح الخطابي وحالته النفسية، فيقول مثلاً: « عدت إلى الاجتماع مع عبد الكريم وشقيقه (...) فرأيت على وجه الاثنين ما يدل على أنهما قد اعتزما التحدث إليّ بصراحة تامة... »⁴. وهذه مسألة مهمة في التعاطي مع هذه المذكرات، حيث نستشف من هذه المقولة، أن المدون كان يصنف في أقوال الخطابي بين أقوالاً يراها صريحة وأخرى غير صريحة. وإذا كنا لا نستطيع الجزم في مدى تصرف المدون في المعطيات التي رأى أن الخطابي ليس صريحاً فيها، فإنه يؤكد في مذكراته أن كل ما جاء فيها، فهو من محمد بن عبد الكريم الخطابي وأخيه، إما مما أملاه عليه الاثنان، أو من خلال الوثائق التي أمده بهاً⁵. وقد أثار المدون في هذه المذكرات مشكل اللغة، فحسب ما جاء عند روجر

3. روجر ماثيو، مذكرات الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، ترجمة عمر أبو النصر، (المحمدية: مطبعة فضالة، 2005).

4. نفسه، ص 47.

5. نفسه، ص 37.

ماثيو فإن محمد بن عبد الكريم الخطابي كان يفهم اللغة الفرنسية ولا يتحدث بها، لذلك كان يجيب الخطابي على سؤال الصحفي بالعربية، ويتكفل شقيقه محمد بترجمة الجواب⁶. لم يكن الخطابي هو الوحيد الذي روى مذكراته على أشخاص آخرين تكفلوا بنشرها، فإلى جانبه، نجد محمد أزرقان وزير خارجية « الجمهورية الريفية »، روى مذكراته على أحمد سكيرج، فخلال الإقامة الجبرية لأزرقان في مدينة الجديدة سنة 1926، صادف أن التقى بأحمد سكيرج المهتم بما كان يحدث في الريف. فدون هذا الأخير ما روي له في مخطوط عنوانه بـ « الظل الوريث في محاربة الريف »⁷. وعكس المذكرات الأولى، التي أفادتنا في المعطيات المرتبطة باللغة، فإن مذكرات أزرقان لا تقدم الشيء الكثير عن هذا الموضوع، باستثناء أن المدون اعتبر أن ما قيل له من طرف أزرقان، هو بمثابة منبع صافي الزلال. كما يعلن المدون أنه أضاف معلومات أخرى زيادة في التوثيق، وأحياناً أخرى اختصر بعضها مع الاختصار على ما يفيد⁸.

والجدير بالملاحظة أن الذين تكفلوا بتدوين ما روي لهم، لم يكونوا من المنتمين إلى الريف جغرافياً، عكس الرواة. فمحمد بن عبد الكريم الخطابي، كان قائد هذه المقاومة من سنة 1921 إلى سنة 1926، واستسلامه كان إعلماً بانتهائها، وإلى جانبه، كان محمد أزرقان وزيراً لخارجية الإمارة أو الجمهورية الريفية.

وبهذا يتضح أن التأريخ للمقاومة الريفية عبر رواية أحداثها شفويًا، قد مر بمجموعة من المراحل، ابتداء من التعبير عن هذه المذكرات بلغة غير اللغة المدونة، ثم تدوينها بلغة غير اللغة التي رويت بها الأحداث، دون أن ننسى ما يتطلبه تدوين الأحداث من الاختصار أحياناً، والتفصيل أحياناً أخرى. وأمام هذه الصعوبات التي تقتزن بالتأريخ للمقاومة الريفية عن طريق رواية أحداثها، اختار بعض المتذكرين تدوين مذكراتهم بأنفسهم. فما هي سمات هذا التدوين ؟

ب- المتذكرون المدونون

اختار بعض ممن عايش أحداث حرب الريف، التعبير عن ذكرياته من خلال تدوين ما عايشه بين سنتي 1921 و1926، فمحمد بن عبد الكريم الخطابي الذي سبق أن روى

6. نفسه، ص40.

7. أحمد سكيرج، الظل الوريث في محاربة الريف (الجديدة: مخطوط غير منشور متوفر إلكترونياً، 1926)، ص1.

8. نفسه، ص3.

بعض مذكراته لروجر ماثيو على ظهر باخرة « عبدة »، عاد وكتب مذكرة أخرى خلال نفس السنة، ولم تنشر هذه المذكرات إلا سنة 2017⁹.

إلى جانب الخطابي نجد محمد محمد عمر بلقاضي، الذي أنجز مؤلفاً يُورخ فيه للمقاومة الريفية¹⁰، انطلاقاً من التجربة التي عاشها إبان هذه الحرب. وبلقاضي كذلك كان مشاركاً في حرب الريف ومساهمياً فيها، فقد شارك المؤلف في المعارك التي خاضها الخطابي ضد الإسبان، وعلى سبيل المثال، نجده قد شارك في معركتي « ادهارأبران » و« أنوال »... إلخ. وقد أسند إليه الخطابي نظراً لمستواه التعليمي، مجموعة من المهمات في حكومة الريف، فقد تولى رئاسة المستودع العام لجمع الذخائر والأسلحة، كما أنه كان مساعداً لأمين المالية. وكان من بين الأعمال التي أنجزها خلال تحمله هذه المسؤوليات، إحصاء الأسرى الإسبان وتنظيمهم... إلخ¹¹.

وإلى جانب هؤلاء الذين كانوا مؤثرين بشكل مباشر في حرب الريف، ساهم العربي اللوه في التأريخ للمقاومة الريفية، انطلاقاً من حياته التي قضاها في الريف إبان المقاومة الريفية، قبل أن يسافر إلى تونس في منتصف مسيرة هذه المقاومة، وبدوره كان للعربي اللوه الذي غادر الريف قبل نهاية المقاومة الريفية، دور أساسي في تجنيد سكان منطقة جباله في حرب الريف.

يتضح أن جل هؤلاء المتذكرين الذين أروخوا للمقاومة الريفية انطلاقاً من ذكراتهم، سواء الذين دونوا مذكراتهم بأنفسهم، أو الذين رووها على أشخاص آخرين، كانوا فاعلين في حرب الريف ومساهمين فيها، سواء أكانوا في القيادة والتنظيم، أو مشاركين في المعارك على أرضية الميدان. وإذا ركزنا على الذين دونوا مذكراتهم، ومما أنهم التجأوا إلى فعل الكتابة لحفظ ذكراتهم، فالسؤال هو، هل تلقى هؤلاء تعليماً معيناً يسمح لهم بحفظ ذكراتهم في كتب؟ وما طبيعة التعليم الذي تلقوه؟

تميز منتج هذا الصنف الأول من الكتابة التاريخية حول موضوع المقاومة الريفية، بتلقيهم للعلم بالطريقة التي كانت سائدة آنذاك، فكل من محمد بن عبد الكريم الخطابي، ومحمد محمد عمر بلقاضي، والعربي اللوه، تلقوا تعليماً « محلياً » في الكتاتيب القرآنية

9. محمد الخطابي، مذكرات لاريونين، تحقيق عزوزي عبد المجيد، ومحمد أونيا، وعبد الحميد الرايس، وجمال أمزيان، (الرباط: دار أبي رقرق للطباعة والنشر، 2017).

10. محمد محمد عمر بلقاضي، أسد الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي: مذكرات عن حرب الريف، ط. 2 (الرباط: مطبعة سلمى، 2006).

11. نفسه، الغلاف الخلفي.

المحلية، قبل الانتقال إلى إحدى عواصم المغرب العلمية آنذاك. فالخطابي بدأ تعلمه في قريته بأجدير على يد والده عبد الكريم الخطابي، فقد حفظه القرآن، ودرسه « المبادئ الدينية والنحو والتصريف والفقه ومبادئ التاريخ »¹². وعلى منوال عبد الكريم الخطابي، تلقى العربي اللوه التعليم الديني في أحضان عائلته، بقرية تغانيمين بقبيلة بقبوة بالريف¹³.

وما لبث هؤلاء أن رحلوا من قراهم في اتجاه الحواضر أو المراكز العلمية، فالخطابي انتقل عندما بلغ العاشرة من عمره إلى تطوان رفقة عمه عبد السلام الخطابي، ثم إلى مدينة فاس قصد الدراسة في جامع القرويين، ومكثا في هذه المدينة قرابة أربعة سنين¹⁴. وعلى غرار الخطابي، انتقل بلقاضي سنة 1913 إلى مدينة زهون ثم إلى مدينة فاس للدراسة في القرويين، ويشير بلقاضي نفسه أنه أقام في هذه الجامعة لمدة ثلاثة سنوات¹⁵.

أما العربي اللوه، وبعد حفظه للقرآن، توجه نحو الشمال الغربي للمغرب، وانتقل بين القبائل الغمارية و« الجبلية » يتعلم الفقه والعربية... إلخ. وبحكم مجريات الأحداث في الريف، وامتدادات المقاومة الريفية داخليا وخارجيا، لم يتمكن اللوه من إكمال دراسته في جبل حبيب، كما لم يستطع الوصول إلى فاس، بحكم موقف فرنسا من رجال المقاومة الريفية آنذاك.

حاول اللوه تعويض عدم قدرته على الدراسة في القرويين، بالدراسة خارج المغرب، لذلك نجده سنة 1923 قد غادر الريف من بوابة وجدة في اتجاه تونس، فقصد جامع الزيتونة، وتعلم فيها العلوم التي بدأ في تعلمها بالريف. ولعل من أهم مشايخه الذين تعلم على أيديهم، محمد الطاهر بن عاشور¹⁶. وتخرج العربي اللوه من جامع الزيتونة سنة 1929، وعاد إلى مسقط رأسه سنة 1930¹⁷.

12. محمد الخطابي، م.س، ص63.

13. العربي اللوه، المنهال في كفاح أبطال الشمال، ط.2 (تطوان: مطبعة الخليج العربي، 2009)، ص185.

14. محمد محمد عمر بلقاضي، م.س، ص96.

15. نفسه، الغلاف الخلفي.

16. محمد الطاهر بن عاشور (1879-1973): ولد الطاهر بن عاشور في تونس سنة 1879 من أسرة أندلسية، انتقلت من الأندلس إلى سلا، قبل أن تنتقل إلى تونس سنة 1648. وبدأ تعلمه على سن السادسة، بعد أن التحق بمسجد سيدي أبي حديد، قبل أن يلتحق بجامع الزيتونة سنة 1893. كان الطاهر بن عاشور قاضياً ثم مفتياً، وحصل على إجازة شيخ الإسلام وإجازة العالم الناخب. وللطاهر بن عاشور مجموعة من الكتابات، أهمها كتاب: « مقاصد الشريعة الإسلامية ». للمزيد حول الطاهر بن عاشور، راجع: محمد الحبيب ابن الخوجة، شيخ الإسلام الإمام الأكبر محمد الطاهر بن عاشور، ج.2 (قطر، طبع الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، 2004)، ص153.

17. العربي اللوه، م.س، ص185.

ويبدو أن جامع القرويين كانت وجهتهم المفضلة. ويستثنى من هؤلاء، العربي اللوه الذي درس خارج المغرب. وبعد الاطلاع على المسيرة التعليمية لمؤلفي هذا الصنف الأول من الكتابات التاريخية، نجد أن جلهم تدرجوا في طلب العلم انطلاقاً من الكتابات القرآنية المحلية، وصولاً إلى أحد الجوامع المشهورة آنذاك، أما فيما يخص طبيعة العلوم التي تلقاها هؤلاء، فإنها كانت في الغالب تقتصر على العلوم الدينية، من علوم التفسير والفقه والحديث، بالإضافة إلى علوم اللغة العربية من نحو وصرف. وفي إطار هذه العلوم تلقوا علم التاريخ كما أشار الخطابي إلى ذلك، وعلم التاريخ خلال نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان يتمثل أساساً في معرفة أحوال الأمم الماضية¹⁸. وعلى هذا الأساس نتساءل عن: كيف كتب المنتجون مذكراتهم حول حرب الريف؟ وما هي الموضوعات التي أرخوا لها؟

1-2- التاريخ الذاكري: الموضوعات والمنهج والمصادر

يشير أصحاب هذا الصنف الأول من الكتابة التاريخية، إلى أنهم يقومون بالتأريخ للمقاومة الريفية، بل هناك منهم من ادعى أنه يمتلك أصالة المعلومات التي يرويها أكثر من غيره، باعتباره ساهم فيها ولم ينقل معلوماته من المجلات أو المؤرخين الآخرين. ويشير بلقاضي إلى أن الذين كتبوا عن المقاومة الريفية ولم يكونوا حاضرين فيها، فإما هم مؤرخون متحيزون لصالح الأعداء، أو مؤرخون أخطأوا عن حسن نية، نظراً لعدم تمكنهم من مشاهدة الأحداث وقت وقوعها¹⁹، وفي إطار تأريخهم لموضوع المقاومة الريفية بين سنتي 1921 و1926، فإنهم يعودون إلى فترة ظهور « بوحمارة »²⁰ في شرق الريف في بداية القرن العشرين، مروراً بمقاومة الشريف محمد أمزيان، وانتهاءً باستسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي سنة 1926. ويتبع هؤلاء المتذكرون الترتيب الكرونولوجي للأحداث في تأريخهم للمقاومة الريفية، فجل هذه المذكرات تؤرخ للأحداث من الأقدم إلى الأحدث بشكل تدريجي. أما مصادر هذه الكتابات فإنها تعتمد أساساً على ما حفظته الذاكرة حول الأحداث التي شاركوا فيها، لذلك تجد في هذه الكتابات تعابير كثيرة تدل على ضمير الأنا،

18. أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.1، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري (البيضاء: دار الكتاب، 1997)، ص.60.

19. محمد محمد عمر بلقاضي، م.س، ص.5.

20. بوحمارة: اسمه الحقيقي هو عمر بن إدريس الجيلالي بن إدريس محمد اليوسفي الزرهوني، ولد سنة 1860، ويلقب إما بـ «الروي» أو «بوحمارة»، واشتهر بنشاطه السياسي ابتداء من سنة 1902 إلى سنة 1903، حيث حاول الثورة على النظام القائم في المغرب آنذاك، وانتهت حياته سنة 1909، بعد أن ألقى عليه القبض.

مثل « كنت » و« ذهبت »... إلخ. ولم تقتصر هذه الكتابات على ما حفظته الذاكرة فقط، بل تستعين أحياناً ببعض الإصدارات التي ظهرت قبل كتابة مذكراتهم، فباستثناء مذكرتي الخطابي ومذكرات محمد أزرقان التي ظهرت مباشرة بعد انتهاء حرب الريف، كتبت باقي المذكرات خلال نهاية السبعينيات²¹.

اهتم أصحاب هذا الصنف الأول خلال التأريخ لهذه الفترة الزمنية بصنفين من الموضوعات، الصنف الأول عسكري، إذ ركز هؤلاء على إظهار أسباب المعارك بين الإسبان وقادة المقاومة الريفية بين 1921 و1926، والمعدات العسكرية لكل طرف، ونتائج هذه المعارك على الطرفين. كما أشارت كل هذه المذكرات إلى أسباب انضمام فرنسا إلى هذه الحرب ودورها في استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي. ويحاول منتجو المذكرات أن يؤرخوا لأكبر قدر ممكن من المعارك التي جرت بين الأطراف المتحاربة.

الصنف الثاني سياسي، فيشير هؤلاء بشكل صريح أو ضمني إلى ضعف الدولة المركزية قبيل فرض الحماية الفرنسية على المغرب²²، كما أرخ جلهم للحركة السياسية-العسكرية التي قام بها الجيلالي الزرهوني، المعروف محلياً بـ « بوحامرة ». كما لمحت بعض هذه المذكرات إلى بعض القضايا السياسية المرتبطة بالمقاومة الريفية، خاصة مسألة تنظيم الريف سياسياً وعلاقة قادة المقاومة الريفية بباقي الدول الخارجية، خاصة إسبانيا وفرنسا وإنجلترا.

وتتميز هذه الكتابات بالتشابه على مستوى المنهجية المعتمدة في التأريخ، والتعاطي مع تعاقب الأحداث. ونظراً لكونها كتابات ذاكرية، فكثيراً ما يركز كل واحد منهم على الأدوار التي قام بها في المقاومة الريفية. ورغم هذه التقاطعات العامة بين جل المتذكرين، إلا أنه هناك اختلافات عديدة بينهما، وخاصة فيما يتعلق بالأرقام. وعلى سبيل المثال، اختلف المتذكرون في تقدير خسائر معركة أنوال، فالخطابي مثلاً جعلها في حدود 15.000²³، في حين قدر بلقاضي خسائر هذه المعركة بحوالي 40.000 جندي²⁴. أما البعض الآخر فاختار عدم تقديم أي رقم، نظراً لاستحالة حصوله على إحصائيات دقيقة وبالتالي فإن أي رقم يقدم، يعد بمثابة رجم بالغيب حسب العربي اللوه²⁵. كما اختلف المتذكرون في

21. تعود البدايات الأولى للاهتمام بموضوع المقاومة الريفية بعد الاستقلال، إلى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، خاصة بعد تنظيم الندوة الدولية حول محمد بن عبد الكريم الخطابي في باريس سنة 1973.

22. محمد الخطابي، م.س، ص53.

23. ماثيو روجر، م.س، ص59.

24. محمد محمد عمر بلقاضي، م.س، ص124.

25. العربي اللوه، م.س، ص105.

تقديم بعض الشخصيات التي كانت تتعامل مع المقاومة الريفية، فمثلاً اختلف المتذكرون في تقديم شخصية أحمد الريسوني، ففي الوقت الذي اعتبره العربي اللوه²⁶ أسد الجبل ومقاوم مكر بالإسبان²⁷، اعتبره بلقاضي ناهباً للأموال، وقتاله للإسبان لم يكن إلا من أجل جمع الأموال، وتحقيق المصالح الشخصية، بل يضيف بلقاضي، أن الريسوني: «... كان يقتل الناس وينهب الأموال»²⁸.

وتجدر الإشارة إلى أن المذكرات ألفت على مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي التي أعقبت نهاية المقاومة الريفية، ففي سنة 1926 روى الخطابي مذكراته على الصحافي الفرنسي روجر ماثيو²⁹، قبل أن يكتب مذكرات أخرى في منفاه في جزيرة لاريونيون خلال نفس السنة³⁰. وإلى جانبه روى بلقاضي خلال سنة 1926 مذكراته على أحمد سكيرج³¹. وتتميز هذه المرحلة بغلبة الرواية على التدوين، فقد اختار المتذكرون رواية مذكراتهم على تدوينها.

المرحلة الثانية: تعود إلى نهاية السبعينيات من القرن الماضي، حيث نشرت سنة 1979 مذكرات بلقاضي، وتلتها نشر مذكرات العربي اللوه سنة 1982. وتتميز هذه المرحلة بغياب الرواية، والالتجاء إلى تدوين المذكرات من الفاعلين أنفسهم. وإذا كان الخطابي قد روى وكتب مذكراته تحت طلب خارجي، فإن المذكرات التي تنتمي إلى المرحلة الثانية، قد كُتبت عن رغبة من مؤلفيها. وذلك لمجموعة من الأسباب، مرتبطة بالسياق الاجتماعي والنفسي للمتذكرين³².

يتضح إذن أن هذا الصنف الأول من الأصناف الأربعة قد تميز بطابعه الذاكري، أي الاعتماد عن الذاكرة بشكل أساسي في التأريخ للمقاومة الريفية. ورغم أن أغلب هؤلاء عايشوا مرحلة المقاومة فقط، إلا أنهم عادوا وأرخوا لأحداث زمنية سابقة لميلادهم،

26. في هذا الصدد، نشير إلى أن العربي اللوه لم يكن شاهداً على الخلاف الذي وقع بين الخطابي والريسوني، لأنه كان قد غادر المنطقة إلى تونس، وهذا معطى أساسي لفهم السبب في اختلاف العربي اللوه مع بلقاضي في تقديم شخصية الريسوني. نفسه، ص120.

28. محمد محمد عمر بلقاضي، م.س، ص162.

29. نشرت هذه المذكرات سنة 1927 باللغة الفرنسية.

30. لم تنشر هذه المذكرات إلا سنة 2017 باللغة العربية، وهي اللغة الأصلية التي كتبت بها.

31. حالياً تتوفر على هذه الكتاب في شكل مخطوط، ولم نستطع أن نصل إلى تحقيق الباحث رشيد يشوتي الذي نشر خلال هذه السنة.

32. حول أهمية هذا السياق في التأريخ للمقاومة الريفية، أنظر الفصل الثاني من هذه الرسالة.

معتمدين في ذلك على ما توطن في ذاكرة قبائلهم عن تلك الأحداث³³. وإذا كانت هذه هي أهم خصائص هذا الصنف الأول، فما هي خصائص باقي الأصناف الأخرى؟

2- كتابات رجال الحركة الوطنية

نقصد بكتابات رجال الحركة الوطنية، تلك الكتابات التي ألفها رجال ينتمون إلى المقاومة السياسية المغربية بين سنتي 1930 و1956. فقد قام هؤلاء خلال هذه الفترة أو بعدها بتأليف مجموعة من الكتب حول المقاومة الريفية، وقبل أن نعرف الموضوعات التي أرخوا لها، نتساءل عن هم هؤلاء؟ وكيف أرخوا للمقاومة الريفية؟

1-2- مؤرخو المقاومة الريفية من رجال الحركة الوطنية

تعتبر كتابات رجال الحركة الوطنية من أولى الكتابات التي حاولت الاهتمام بمحمد بن عبد الكريم الخطابي بعد المنفى، أو بالأحرى بعد لجوئه إلى مصر، ففي إطار تأريخه للحركات الاستقلالية، أدرج علال الفاسي محورا خاصاً بالمقاومة الريفية في كتابه « الحركات الاستقلالية بالمغرب العربي » عنوانه بـ « حرب الريف » سنة 1948³⁴. وبعد علال الفاسي، قام مجموعة من رجال الحركة الوطنية بمحاولة التأريخ للمقاومة الريفية، فقد خصص محمد بن الحسن الوزاني جزءاً كاملاً من سلسلة حياة وجهاد للتأريخ لهذه المقاومة³⁵. في حين خصص أبو بكر القادري جزءاً من كتابه « رجال عرفتهم في المغرب والمشرق » للتأريخ للمقاومة الريفية، وخاصة شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي³⁶. أما من رجال الحركة الوطنية في الشمال، فقد أدرج التهامي الوزاني في كتابه « تاريخ المغرب » الذي صدر سنة 1945، فصلاً خاصاً بالمقاومة الريفية.

تتضمن كتابات رجال الحركة الوطنية عدة مقالات أو فصول تتحدث عن الخطابي، كما في مذكرات عبد الرحمان عبد الله الصنهاجي، وأحمد معنينو، وعبد الكريم غلاب وغيرهم. وكما في حالة مؤلفي المذكرات عن حرب الريف، فإن أغلب هؤلاء كانوا معاصرين لحرب الريف، ولاسيما الجيل الأول المؤسس للحركة الوطنية³⁷، لكنهم على عكس منتجي المذكرات

33. أنظر على سبيل المثال: محمد محمد عمر بلقاضي، أسد الريف، ص36.

34. علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ط6 (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2003)، ص125.

35. محمد بن الحسن الوزاني، مذكرات حياة وجهاد التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية: حرب الريف، ج2 (دون مكان النشر: مؤسسة محمد حسن الوزاني، 1986).

36. أبو بكر القادري، رجال عرفتهم في المغرب والمشرق، (البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1983)، ص79.

37. مثل علال الفاسي الذي ولد سنة 1910، وأحمد معنينو الذي ولد سنة 1906، وأبو بكر الذي ولد سنة 1914...إلخ.

عن حرب الريف، لم يكن هؤلاء من المشاركين في المقاومة الريفية. ورغم عدم المشاركة في هذه المقاومة، إلا أن أغلبهم جايلها، والتقى بقادتها، وخاصة محمد بن عبد الكريم الخطابي في مصر الذي استقبل العديد من رجال الحركة الوطنية³⁸. فبالرغم من عدم مشاركة هؤلاء في حرب الريف، إلا أنهم كانوا على اتصال بالأشخاص الذين قادوا هذه المقاومة. وبروز الخطابي من جديد سنة 1947 بمصر كان أحد أسباب بداية التأريخ للمقاومة. لكن السؤال المطروح هو هل تكوينهم العلمي يؤهلهم للتأريخ للمقاومة الريفية؟

بالعودة إلى التعليم الذي تلقاه هؤلاء، يتضح بصفة عامة أنهم تلقوا تعليماً بالطريقة التي كانت سائدة آنذاك، حيث كانت البداية بالكتاتيب القرآنية المحلية ثم الدراسة في جامع القرويين أو المراكز التعليمية المعروفة. وتلقى أغلب هؤلاء العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، فعلال الفاسي مثلاً، تلقى تعليمه الأولي على يد أبيه عبد الواحد الفاسي، ثم في الكتاتيب القرآنية، قبل الدراسة في جامع القرويين. وخلال مسيرته التعليمية درس علال الفاسي العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية³⁹. وبصفة عامة، كان تكوين معظم رجال الحركة الوطنية - الذين أروخوا للمقاومة الريفية - يشبه تكوين علال الفاسي. ويستثنى من هؤلاء، محمد بن الحسن الوزاني، الذي درس بفرنسا⁴⁰.

2-2- المقاومة الريفية في كتابات رجال الحركة الوطنية: الموضوعات، والمنهج،

والمصادر

من خلال تتبع مختلف كتابات رجال الحركة الوطنية عن المقاومة الريفية، يظهر أن هناك ترابطاً بين مكوني الذاكرة والتاريخ، فأغلب هؤلاء كتبوا عن المقاومة الريفية في إطار كتابة مذكراتهم، لكن في نفس الوقت، اعتمدوا على بعض المصادر والوثائق. فهذا ما نجده عند محمد بن الحسن الوزاني مذكراته الخاصة: « مذكرات حياة وجهاد »، حيث اعتمد من جهة على وثائق رجال المقاومة الريفية مثل الرسائل التي كان يرسلها الخطابي إلى الدول الأجنبية، فيقول الوزاني: « ويتضح من الوثائق السياسية والديبلوماسية التي كانت تصدر عن حكومة الثورة... »⁴¹. ومن جهة أخرى على الوثائق الإسبانية. ونفس

38. أنظر على سبيل المثال: محمد بن الحسن الوزاني، م.س، ج.2، ص.17.

39. محمد رحاي، « من أعلام الحركة التحريرية في المغرب العربي: علال الفاسي نموذجاً »، مجلة المستقبل العربي، العدد 432 (فبراير 2015)، ص-ص 137-148.

40. محمد معروف الدفالي، « زعماء الحركة الوطنية والفكر الغربي حول استلهم محمد بن الحسن الوزاني للبرالية »، مجلة بصمات، العدد الخامس (1995)، ص-ص 222-238، ص.223.

41. محمد بن الحسن الوزاني، م.س، ج.2، ص.68.

الملاحظة تنطبق على علال الفاسي، فعندما كتب عن المقاومة الريفية اعتمد أساساً على الكتب الفرنسية⁴². ويتضح هذا من خلال مقارنة ما جاء في كتاب الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مع بعض الكتابات الفرنسية، وخاصة مذكرات محمد بن عبد الكريم الخطابي التي نشرها روجر ماثيو سنة 1927، فهناك بعض الفقرات منقولة حرفياً⁴³. وإلى جانب علال الفاسي، عمل أحمد معنينو، على كتابة ما علق في ذهنه من ذكريات، والعودة إلى بعض الكتابات التي كتبت في هذا الموضوع، وخاصة كتاب محمد بن الحسن الوزاني⁴⁴. ويبدو أن استحضار ذاكرة المقاومة الريفية في كتابات رجال الحركة الوطنية لم تكن استعادة مباشرة، فرغم أنهم عاصروها زمنياً، لكنهم لم يكونوا من الشاهدين أو الفاعلين في الأحداث، لذلك تم الاعتماد على بعض الكتابات الأجنبية أو المحلية، بالإضافة إلى بعض شهادات رجال المقاومة الريفية. وهذا يجعلنا نتساءل عن: هل كانت ذاكرة المقاومة الريفية مجهولة عند رجال الحركة الوطنية؟ وماهي طبيعة الموضوعات المتعلقة بالمقاومة الريفية في كتابات رجال الحركة الوطنية؟

اهتم رجال الحركة الوطنية أساساً بالجانب العسكري لهذه المقاومة، وركزوا على شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي. فإذا استثنينا ما أنتجه محمد بن الحسن الوزاني - الذي أُلّف شيئاً مختلفاً من ناحية الموضوعات - فإن أغلب رجال الحركة الوطنية بمعاركه ضد الاستعمارين الفرنسي والإسباني، واعتبروها معارك تمثل الرغبة المغربية في التحرر من الاستعمار⁴⁵. ومن جهة أخرى اهتمت هذه الكتابات بشخصية الخطابي، من خلال التركيز على حياته وتعلمه ومكانته في قبيلة بني ورياغل ودوره في حرب الريف، واعتبرتها شخصية مقاوم مسلح كان يحاول الذود عن البلاد، بل ذهب معظمهم إلى أن هذه الشخصية كانت تحاول آنذاك تحرير منطقة شمال إفريقيا بأكملها من الاستعمار الفرنسي⁴⁶.

42. عبد الله العروي، « الخطابي والحركة الوطنية (لغاية 1948) »، في كتاب: محمد بن عبد الكريم الخطابي تجربة الثورة والجمهورية، ص-ص 19-27، مجلة الملتقى، العدد 42 (الدار البيضاء: مطبعة النجاشي الجديدة، 2017)، ص 22.

43. مثلاً يقول الفاسي: « وفي اليوم الخامس والعشرين من الشهر قام الريفيون بهجوم عنيف عام على طول الخط، وحمى وطيس المعركة حول الحسيمة، وشاركت فيها المدفعية الريفية للمرة الأولى... إلخ » الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، ص 128. ونفس النص جاء عند روجر ماثيو، فيقول هذا الأخير: « وفي 25 منه-شهر مارس-قام الريفيون بهجوم عام على طول الخط واشتدت المعركة حول الحسيمة اشتركت فيها المدفعية الريفية لأول مرة... إلخ »، مذكرات الأمير، ص 77.

44. أحمد معنينو، ذكريات ومذكرات، ج 1، عن: فاطمة الجامعي الحبابي، محمد بن عبد الكريم الخطابي في أحداث أقطاب الفكر والنضال الوطني بالمغرب، ج 2 (دون مكان النشر، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2013)، ص 161.

45. علال الفاسي، م.س، ص 126.

46. عبد الرحمن عبد الله الصنهاجي، مذكرات في تاريخ حركة المقاومة وجيش التحرير من 1947 إلى 1986، (المحمدية: مطبعة فضالة، 1987)، ص 55.

لكن الاهتمام بالجانب العسكري، قابله غياب للجانب السياسي للمقاومة الريفية، فجل هذه الكتابات ركزت على المجاهد والمقاوم المسلح، ولم تلتفت إلى الجانب السياسي لهذه المقاومة، باستثناء محمد بن الحسن الوزاني الذي حاول في كتابه مناقشة مسألة « جمهورية الريف »⁴⁷. وكذلك علال الفاسي، الذي قدم إشارات قليلة عن الجانب السياسي للمقاومة الريفية⁴⁸.

تجدر الإشارة في هذا الصدد، إلى أن المقاومة الريفية لم تعد الموضوع الأساس في هذه الكتابات، فيما أن أغلبها مذكرات حول مرحلة المقاومة السياسية، أي الفترة الممتدة من 1930 إلى 1956، فإن هذه الكتابات تتناول موضوع المقاومة الريفية في إطار توضيحها للمجرى العام الذي عرفه المغرب بعد فرض الحماية الفرنسية، فيقوم أصحابها بالربط بين ثلاثة عناصر، العنصر الأول يتمثل في فرض الحماية الفرنسية على المغرب، وهذا المكون أفرز العنصر الثاني المتمثل في المقاومة المسلحة، ومن بينها المقاومة الريفية. ونهاية المقاومة الريفية، أدت إلى المكون الثالث، الذي يتمظهر في بداية المقاومة السياسية⁴⁹. وبالتالي تصبح المقاومة الريفية والأحداث التي وقعت قبل سنة 1930، بمثابة أحداث تقديمية في هذه الكتابات.

أُلفت معظم هذه الكتابات، قبيل الاستقلال أو خلال سنوات متفرقة من النصف الثاني من القرن العشرين. وفي هذه الفترة، أي بعد سنة من استقلال المغرب، تأسست الجامعة المغربية، وهذا التأسيس ساهم في ظهور نوع آخر من الكتابات التاريخية حول موضوع المقاومة الريفية، وهي كتابات المؤرخين المحترفين.

3- نماذج من كتابات المؤرخ المحترف حول المقاومة الريفية

نعني بالمؤرخين المحترفين في هذا السياق، أولئك الذين تخصصوا في إنتاج المعرفة التاريخية بالمغرب خلال النصف الثاني من القرن العشرين، وجعلوا من البحث التاريخي حجر الزاوية في كتاباتهم⁵⁰، وارتباطاً بموضوع المقاومة الريفية، ألف العديد من المؤرخين مجموعة من الكتب والمقالات حول المقاومة الريفية.

47. محمد بن الحسن الوزاني، م.س، ج.2 ص371.

48. علال الفاسي، م.س، ص139.

49. نفسه، ص145.

50. يعرف الباحث عبد الرحيم بنحادة المؤرخ المحترف بـ: « المؤرخين المحترفين من يمتنون التاريخ ويشغلون به في الجامعة، إن على المستوى الوطني أو على المستوى الدولي ». عبد الرحيم بنحادة، « في إنتاج المعرفة التاريخية في المغرب »، في كتاب: مجموعة مؤلفين (تنسيق وجيه كوثراني)، التأريخ العربي وتاريخ العرب كيف كتب وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة، ص.419-446، (الطعنين: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص421.

3-1- المقاومة الريفية والمؤرخ المحترف

تعود بدايات اهتمام المؤرخين المغاربة بموضوع المقاومة الريفية، إلى نهاية العقد السابع وبداية العقد الثامن من القرن الماضي، فخلال هذه الفترة ظهرت مجموعة من الكاتبات التي تحاول التأريخ للمقاومة الريفية. وتعتبر سنة 1973 نقطة انطلاق المؤرخ المحترف للاهتمام بهذا الموضوع، فبعد تنظيم الندوة الدولية حول موضوع « محمد بن عبد الكريم الخطابي تجربة الثورة والجمهورية »، بدأ المؤرخ المغربي يهتم بالبحث في هذا الموضوع. وقد ساهم بشكل كبير في هذه العملية الجيل الأول من المؤرخين المغاربة أمثال محمد زنيير⁵¹ وجرمان عياش⁵² وغيرهما، وقد واصل هذا العمل الجيل الثاني⁵³.

وقد شملت هذه الكتابات أعمال مختلفة مثل الأطاريح الجامعية وكتب ومقالات في مجلات متخصصة. ففيما يخص الأطاريح الجامعية نذكر بالخصوص أطروحة عبد الرحمان اليوسفي دكتوراه بفرنسا سنة 1971، عن موضوع « المقاومة المغربية للتغلغل الأجنبي في الفترة من 1904 إلى 1934 »، وأولى هذا الباحث أهمية خاصة للمقاومة الريفية⁵⁴. ثم أطروحة جرمان عياش عن أصول حرب الريف، وبعد ذلك توالى الأطاريح الجامعية التي تهتم بهذا الموضوع. وفيما يخص المنشورات نذكر كتابات محمد زنيير ومحمد عزوز حكيم وإبراهيم كريدية...إلخ. أما المقالات، فهي كثيرة في الفترة الزمنية الممتدة من سنة 1971

51. محمد زنيير، صفحات من الوطنية المغربية من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية، (دون مكان النشر: دون مؤسسة النشر، 1990).

52. أصد جرمان عياش مجموعة من الكتابات حول المقاومة الريفية، من أهمها: جرمان عياش، أصول حرب الريف، ترجمة محمد الأمين البزاز، وعبد العزيز التمساني خلوق، (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1992).

53. في موضوع تحقيق الكتابة التاريخية المغربية إلى أجيال، هناك عدة توجهات واختلافات بين المؤرخين المغاربة. فمثلاً نجد الباحث جمال حيمر، يميز بين مرحلتين، مرحلة وطنية ممتدة من 1956 إلى 1976. أما المرحلة الثانية تمتد بين 1976 و1980. وتتميزت هذه الفترة، بكونها مرحلة وضع الأسس لتاريخ علمي شامل. أنظر: جمال حيمر، قضايا في تاريخ مغرب القرن 19، (مكناس: مطبوع جامعي، جامعة مولاي إسماعيل، 2010-2011)، ص.20. وقريب من هذا التحقيق، نجد تحقيق الباحث عبد العزيز الطاهري، الذي يميز بين التاريخ الوطني والتاريخ الأكاديمي. أنظر: عبد العزيز الطاهري، الإستوغرافيا العربية المعاصرة بين التاريخ والذاكرة: المغرب نموذجاً، في كتاب: مجموعة مؤلفين، (تنسيق وجيه كوثراني)، التأريخ العربي وتاريخ العرب كيف كتب وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة، ص.753-777. (الطعابين: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017). وبين هذين التحقيقين، وبما أننا قد صنفنا باقي الكتابات الوطنية والذاكراتية، ارتأينا أن نعتمد على تحقيق الباحث عبد الرحيم بنحادة، نظراً لأنه يركز على كتابات المؤرخ المحترف بالأساس، وهذه هي الكتابات التي نقصد مناقشتها في هذا المحور.

54. عثمان بناني، بين الفعل السياسي والبحث التاريخي، تنسيق عبد الرحمان المودن، (الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2017)، ص.267.

الكتابات التاريخية المغربية عن المقاومة الريفية للاحتلال الاستعماري (1921-1926)

إلى سنة 1999⁵⁵، وهذه المقالات كانت تنشر سواء باللغة العربية أو باللغات الأجنبية مثل الفرنسية والإسبانية⁵⁶.

3-2- الكتابات الاحترافية: الموضوعات والمنهج والمصادر

تميز هذا الصنف من الكتابات التاريخية حول المقاومة الريفية، بإثارة مواضيع جديدة مرتبطة بها، مع التخلي النسبي عن المنهج الكرنولوجي في التأريخ لهذه المقاومة، والتوجه نحو التاريخ الموضوعاتي. وفيما يخص الموضوعات المؤرخ لها، فإن هذه الكتابات لم تركز فقط على فترة الحرب بين 1921 و1926، بل اهتم أصحابها بمجموعة من القضايا التي سبقت زمنياً الحرب الريفية، وتم التركيز أساساً على العائلة الخطابية بشكل عام، وشخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي بشكل خاص، من خلال تتبع مراحل تكوينه العلمي، والمهام التي قام بها في مليلية، وعلاقته بالإسبان قبل أن يقرر مقاومتها⁵⁷.

ومن الموضوعات الجديدة التي أثارها أصحاب هذا الصنف، تلك القضايا المرتبطة بصدى حرب الريف وعلاقات هذه الأخيرة مع بعض البلدان، وفي هذا الإطار حاولت بعض هذه الكتابات أن تكشف عن صدى المقاومة الريفية في محيطها الإقليمي والدولي⁵⁸، والبعض الآخر اهتم بالجانب السياسي للمقاومة الريفية، وطبيعة التنظيم السياسي الذي أسسه الخطابي في الريف إبان المقاومة الريفية⁵⁹. وشمل هذا الإنتاج العلمي ميدان الترجمة حيث اهتم المؤرخون المغاربة بترجمة إما الكتابات التي كتبها شهود عيان ومشاركون

55. وهذا لا يعني أن نشر الكتب والمقالات بعد هذا التاريخ قد قل، بل على العكس من ذلك، شهدت الكتابات التي تخص موضوع المقاومة الريفية ازدياداً كبيراً بعد سنة 1999، لاعتبارات سياسية في إطار ما سمي بـ «العهد الجديد»، وما رافق هذا العهد من سياسات تهدف إلى المصالحة مع الريف. لكن في رسالتنا هذه سنتوقف فقط عن الكتابات التي صدرت قبل سنة 1999، لأن الكتابات التي صدرت بعد هذا التاريخ بدأت تأخذ منحاً آخر، تتطلب بحثاً خاصاً بها.

56. خاصة في الدوريات المحكمة مثل: دار النبابة، hesperis-tamuda، أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع.
57. في موضوع شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي وعلاقته مع الإسبان وإقامته بمليلية، راجع: جرمان عياش، أصول حرب الريف، ص157.

58. هناك مجموعة من الكتابات تناقش هذا الموضوع، منها: الطيب بوتبقات، عبد الكريم الخطابي (حرب الريف والرأي العام العالمي)، سلسلة شراع، سلسلة شراع، العدد 14 (طنجة: دار النشر المغربية ادما، 1997). ومحمد أمزيان، «موقف الحزب الاشتراكي الإسباني من حرب الريف 1921-1926»، مجلة أمل، العدد 8 (1996)، ص-ص 59-72.
Germain Ayache, Les implications internationales de la guerre du Rif (1921-1926), Hesperis-Tamuda, vol. XV (1974), p-p.181-224

59. عبد الرحمن اليوسفي، «مؤسسات جمهورية الريف»، في كتاب، عبد الرحمن اليوسفي وآخرون، محمد بن عبد الكريم الخطابي: تجربة الثورة والجمهورية، ص-ص 19-27، مجلة الملتقى، العدد 42 (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 2017).

في حرب الريف⁶⁰، أو ترجمة كتابات أنجزها مؤرخون أجنب ومغاربة حول نفس الموضوع⁶¹. وبالإضافة إلى الترجمة، عمد بعض المؤرخين إلى التعريف ببعض المذكرات التي كتبها رجال المقاومة الريفية، مثل ما قام المؤرخ عبد العزيز خلوق التسماني مع مذكرات أزرقان التي دونها أحمد سكيرج⁶². وإلى جانب التسماني، قام محمد خرشيش بالتعريف بالوثائق الأرشيفية، وخاصة الأرشيف الفرنسي، الذي يمكن للمؤرخ أن يعتمد عليه في التأريخ للمقاومة الريفية⁶³. ويبدو من خلال هذا أن الاعتماد على الوثائق والأرشيفات أصبح مسألة جوهرية بالنسبة للمؤرخين الذين اشتغلوا عن المقاومة الريفية. وإذا أخذنا جرمان عياش نموذجا، فقد وظف بشكل كبير كتابات ومذكرات رجال الحركة الوطنية التي ألفت قبل نهاية السبعينيات، كما استحضرت الكتابات المشرقية عن المقاومة الريفية⁶⁴. بالإضافة إلى اعتمادهم على الكتابات الأجنبية⁶⁵. وجل هذه الكتابات، سواء أكانت أجنبية أو مشرقية أو محلية، فإنها كانت تتميز بالانحياز لطرف على آخر، وكتبت في فترات زمنية لم تُعن مؤلفيها على توخي الحقيقة التاريخية، ولهذه الأسباب وغيرها وصل جرمان عياش إلى الاقتناع بضرورة رفض جميع المصادر المطبوعة مع بعض الاستثناءات⁶⁶.

هذا على مستوى التأليف والكتابات، أما على المستوى الوثائقي، فإن جرمان عياش - وأغلب المؤرخين المغاربة - اعتمدوا على الوثائق الفرنسية والإسبانية في التأريخ للمقاومة الريفية، رغم أن بعض من هؤلاء المؤرخين سبق لهم أن انتصروا للوثيقة المحلية على الوثيقة الأجنبية⁶⁷. لكن في موضوع المقاومة الريفية بالخصوص، تم الاعتماد بشكل

60. مثل ترجمة محمد ابن عزوز حكيم ليوميات الملازم الإسباني خوسي كاساريسلوكاس في حرب الريف، راجع: محمد ابن عزوز حكيم، ومضات مضيئة عن الحرب الريفية من خلال شاهد عيان إسباني، (الرباط: مطبعة الساحل، 1986).

61. مثل ترجمة أطروحة جرمان عياش من طرف محمد الأمين بزاز وعبد العزيز خلوق التسماني.

62. عبد العزيز التسماني خلوق، مذكرات محمد أزرقان عن حرب الريف: «الظل الوريث في محاربة الريف» مجلة دار النبابة، العدد 9، (1986)، ص-ص 58-70.

63. محمد خرشيش، المقاومة الريفية، سلسلة شراع، العدد 22 (طنجة: دار النشر المغربية ادمبا، 1997)، ص 67.

64. كتابات مثل: عمر أبو النصر، بطل الريف: الأمير عبد الكريم، (دمشق: المكتبة الأهلية، 1934). جلال يحيى، عبد الكريم الخطابي، سلسلة أعلام العرب (القاهرة: دون اسم الناشر، 1968).

65. وأغلب هذه الكتابات تدرس تاريخ المغرب خلال الفترة الإستعمارية بصفة عامة، وتتضمن فصول أو موضوعات حول المقاومة الريفية.

66. جرمان عياش، أصول حرب الريف، ص 13. إلى جانب جرمان عياش يرى لحسن أزغادي أن التأريخ للمقاومة الريفية قبل السبعينيات في المغرب، ركز على الملاحم فقط، حتى أصبح القارئ لا يميز بين الملحمة والتاريخ. أنظر: لحسن أزغادي، «أي تاريخ نريد»، في: ندوة تاريخ المقاومة المسلحة والحركة الوطنية في المنطقة الوسطى الجنوبية 1908-1955، ص-ص 54-58، (الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 1997)، ص 56.

67. في هذا الموضوع، راجع، عبد الرحيم بنحادة، «في إنتاج المعرفة التاريخية في المغرب»، ص 423.

كبير على الوثائق الأجنبية، ونرجح أن تلف أغلب الوثائق المحلية حول المقاومة الريفية، وتغيب ما تبقى منها، كانت إحدى الأسباب التي جعلت المؤرخين المغاربة يعتمدون أساساً على الوثائق الأجنبية. ولاسيما أن هذه الأخيرة، كانت متوفرة وبكثرة في أرشيفات المؤسسات السياسية في الدول التي استعمرت المغرب، وخاصة فرنسا⁶⁸.

4- مؤرخين متنوعين

نقصد بهذا الصنف من الكتابات التاريخية، ما كتبه فاعلون سياسيون أو اجتماعيون لم يتلقوا تكويناً في علم التاريخ، ولم يكونوا شاهدين على وقوع الأحداث. وينتمي هؤلاء إلى حقول معرفية أخرى غير علم التاريخ. ونذكر على سبيل المثال، محمد العلمي المتخصص أساساً في تحليل العلاقات الدولية. وعز الدين الخطابي المتخصص أساساً في الفلسفة وعلوم التربية، والحاصل على الدكتوراه في علم الإثنولوجيا. بالإضافة آمنة اللوه، وهي أديبة مغربية... إلخ. وأغلب مؤلفي هذه الكتابات يرتبطون بالمقاومة الريفية وزعمائها أو بمنطقة الريف، إما بمشاركة أحد أفراد عائلتهم في المقاومة، كما في حالة محمد العلمي⁶⁹. أو الانتماء لمنطقة الريف كما في حالة آمنة اللوه، أو صاحب كتاب « حرب الريف التحريرية ومراحل النضال »⁷⁰. تتميز أعمال هؤلاء بالتسلسلي الكرونولوجي، فهي تتبع الأحداث من الأقدم إلى الأحدث، مع التركيز على شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي ودورها في المقاومة الريفية⁷¹.

تتشرك هذه الكتابات كذلك في طريقة تناولها للأحداث، فكثيراً ما يتم الربط بين الخطابي والألقاب البطولية من قبيل الزعيم والبطل... إلخ⁷². ونظراً لأن هذه الكتابات كانت تحاول أن تُعرف بالأحداث الكبرى للمقاومة الريفية، فإنها لم تعتمد على الأرشيفات والوثائق غير المطبوعة، بل إنها انتقت بعض الكتابات المنشورة. وكثيراً ما يستدل هؤلاء، بشهادات بعض المقاومين، للتأكيد على ما يقدمونه في كتبهم.

68. خصص الباحث محمد خرشيش فصلاً كاملاً للحديث عن الأرشيف الفرنسي حول موضوع المقاومة الريفية. راجع:

محمد خرشيش، المقاومة الريفية، ص 67.

69. محمد العلمي، زعيم الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي، ط. 4. (دون مكان النشر: دار أبي رقرق للطباعة والنشر،

نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2015)، ص 18.

70. أحمد البوعياشي، حرب الريف التحرير ومراحل النضال، (طنجة، نشر عبد السلام جسوسوسوشريس، 1974).

71. أنظر مثلاً: عز الدين الخطابي، محمد عبد الكريم الخطابي القائد الوطني، (الرباط: منشورات تيفرازن اريف، 2003).

ومحمد العلمي، زعيم الريف.

72. بالإضافة إلى المراجع السابقة، راجع: آمنة اللوه، « معلومات عن العائلة الخطابية » مجلة الثقافة المغربية، العدد 6،

(1972)، ص-ص 89-102.

وفي الختام يمكن أن نخلص إلى أن الكتابات التي تناولت موضوع المقاومة الريفية هي أربعة أصناف. الصنف الأول يتمثل في الكتابات الذاكرية، وهي عبارة عن مجموعة من المذكرات التي كتبها أو رواها مقاومون كانوا فاعلين في الأحداث. أما الصنف الثاني فيتمثل في مؤلفات الوطنيين المغاربة. أما الصنف الثالث، يتجلى في كتابات مختلف الفاعلين في المغرب ما بعد الاستقلال، وهم الذين يمتنون أعمالاً أخرى غير إنتاج المعرفة التاريخية، وأغلب هؤلاء مارسوا الفعل التاريخي كهواية لا كحرفة. أما الصنف الرابع، فيرتبط بكتابات المؤرخ المحترف، وهذه الكتابات أنتجها مؤرخون مارسوا التاريخ كحرفة، وهمهم الأساسي إنتاج المعرفة التاريخية. ولكن بين الهواية والحرفة هناك تقاطعات عديدة.

مسار محمد بن عبد الكريم الخطابي المستعصي على الفهم

بقلم: المصطفى بوعزيز

قراءة في كتاب المرحوم عثمان بناني

« بين الفعل السياسي والبحث التاريخي »

تقديم وتنسيق عبد الرحمان المودن

دار أبي رقرق للطباعة والنشر - الرباط 2017.

قدمت هذه المداخلة خلال ندوة بالمكتبة الوطنية بالرباط يوم 28 شتنبر 2017.

كان المرحوم عثمان بناني، فضلا عن الزمالة الجامعية، بمثابة الأخ الأكبر لسببين رئيسيين: الأول لكونه رافق وعاشر أخي الأكبر سيدي محمد بوعزيز خلال مقامهما بالقاهرة، وخلال نشاطهما في الشرق العربي في رحاب فدرالية الاتحاد الوطني لطلبة المغرب أو في مرافقتهما للمهدي بن بركة. فكان يمدني بما لم يكشفه لي أخي سيدي محمد، من أحداث وواقع وطرائف.

السبب الثاني يتعلق بجدلية الالتزام والموضوعية، فقد سبقني إلى المغامرة بالسباحة في ملتقى محيطين هائجين: محيط الفعل السياسي ومحيط البحث التاريخي.. فكنت أسعى دوماً، خلال لقاءاتنا في رحاب الجمعية المغربية للبحث التاريخي، ومركز محمد بن سعيد أيت يدر للدراسات والأبحاث، ومؤسسة الشهيد المهدي بن بركة إلى الاستفادة من تجربته الميدانية والاستنارة بخلاصته حول تعقيدات « الوطنية المغربية » وإرهاصات البحث التاريخي المغربي. لذلك أجدني اليوم محاصراً بمشاعر قوية وأنا أحاول تقديم قراءة لفصل من فصول كتاب المرحوم.

خصص لي المنظمون في هذه القراءة الجماعية، تقديم القسم الثالث للكتاب المعنون بـ « آل الخطابي والثورة الريفية » (من الصفحة 153 إلى الصفحة 258)، يتكون هذا القسم من ثمانية نصوص، أربعة منها منشورة بمعلمة المغرب، وواحدة بمجلة أمل، وأثنان ضمن أعمال ندوات علمية، وواحدة تنشر لأول مرة. تنير هذه النصوص الثمانية القارئ حول « آل الخطابي » كمجموعة بشرية أسرية مستوطنة الريف الشرقي المغربي منذ قرون. مجموعة متألفة بجهاها وعلم وجهائها وتبوؤها، عبر التاريخ، موقع الصدارة وسط القبيلة الكبيرة « آيت ورياغل » وعموم الريف الشرقي. ولكونها كذلك تموقعت كوسيط ممتاز بين عموم سكان الريف الشرقي والساطين المغاربة، خصوصاً العلويين منهم، وكذا القوى الأجنبية الاستعمارية، الإسبانية منها والفرنسية.

تمكن قراءة هذه النصوص من الإحاطة الشاملة بالوقائع والأحداث التي صاحبت « آل الخطابي » من 1883 إلى 1967، أي من تعيين السلطان المولى الحسن لعبد الكريم (الأب) قاضياً على المنطقة إلى تاريخ دفن مَحَمَد بن عبد الكريم الخطابي (الإبن الثاني) بأجدير، مروراً بأحداث « ثورة الريف » ووقائع « استسلام محمد بن عبد الكريم » وسنوات المنفى حيث قضى « آل الخطابي » - أكثر من أربعين فرداً - عشرين سنة وخمسة أشهر بجزيرة « لارينيون La Réunion » وانتهاءً بمقامهم بالقاهرة ابتداءً من مايو 1947 في ضيافة مصر « الفاروقية » أولاً والناصرية ثانياً. عبر هذه النصوص المتداخلة والمتكاملة، يبدو المرحوم عثمان بناني فناناً يرسم لوحة لم تكتمل. لوحة ما زالت معلقة في مرسومه، يأخذ ريشته في كل مناسبة أتاحت له، ليضيف لنبه، أو ليرز بعض الملامح باستبدال زاوية بأخرى، أو إظهار لون بلون آخر.. وتبقى اللوحة غير مكتملة، والتعقيد أكثر امتناعاً عن الإدراك. ذلك أن مسار محمد بن عبد الكريم الخطابي وعائلته عصي عن الفهم. لقد سبق لعبد الله العروي أن نعت « حالة الخطابي » بالحالة المزعجة، « الحالة المقلقة » (Le cas déränge)، للإشارة إلى أن القوالب الجاهزة للتصنيف، لا تستوعب « حالة الخطابي ». فمفاهيم السبية والجهاد والوطنية، مثلها مثل مفاهيم المخزن والأعيان والعمالة، لا تحيط كلياً بالمسار المعقد لمحمد بن عبد الكريم الخطابي وعائلته.

حاول المرحوم عثمان بناني أن يذلل بعض الصعاب، وأن يبلور مجموعة من آليات الفهم. سنقتصر هنا على جزء منها:

مركزية العشيرة: لا يمكن تصور « آل الخطابي » خارج عشيرة آيت ورياغل ومنطقة الريف، فذلك فضاؤها الحيوي، وتلك التربة التي نبتوا وتكاثروا فيها. فبالرغم من سعي

بعضهم لاكتساب العلم الشرعي بالقرويين، وانفتاح أفراد منهم على الثقافة واللغات اللاتينية، عبر احتكاكهم بالاستعمار ورجالاته ومؤسساته، فإن منظومة القيم القبلية، ظلت الوعاء المستقبِل والمؤَطَّر للمستجدات والمستبطنات جراء الاحتكاك بالآخر. هكذا فسلة كبير العائلة محترمة، وقراراته نافذة، ولا يُخلف إلا بعد وفاته..

خلال الحقبة التي غطتها نصوص عثمان بناني، تعاقبت على زعامة « آل الخطابي » ثلاث شخصيات وازنة: عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، القاضي، الأب، ثم محمد بن عبد الكريم، قائد « ثورة الريف »، وأخيراً « مُحَمَّد بن عبد الكريم » الأخ والنائب والمستشار. ولكل واحد منهم خصص المرحوم عثمان بناني نصاً جامعاً.

تصرف الكبير كـ« أمغار »، جامعٌ للعشيرة، ساهمٌ على أحوالها ومراقبٌ لعلاقتها وسلوكاتها، حتى زمن النفي والانزواء في جزيرة « لارينون ».

الأمّة كأفق للهوية: فالانتماء للأسرة وللعشيرة منفتح على إطار أوسع ينعت بالأمّة. وبالرغم من البعدين الديني والتاريخي، المهيكليين للأمّة ككيان يتم الانتماء إليه في آخر المطاف، فإن الدلالات التي يكسوها اللفظ، في حديث « آل الخطابي » أو في كتاباتهم، تظل مبهمة فيما توحى به ترايبا ويسيولوجيا. فقد يشير الخطابي إلى أيت ورياغل، أو الريفين، أو المغاربة، أو المسلمين. فالأمّة مجموعة بشرية مسلمة ينتسب لها وينتمي إليها « آل الخطابي » إلا أن حدودها الترابية متحركة وتشكيلتها الاجتماعية غير مستقرة. لذلك من الصعب تحديد الحمولة التي كان يعطيها « آل الخطابي »، وعلى رأسهم « قائد ثورة الريف »، لتوصيفات من قبيل « الوطن »، « الشعب »، « القومية العربية »، و« الأمّة الإسلامية ». ولعل هذا الإبهام، المندرج من « المخيال الجماعي » الريفى، هو الكامن وراء التساؤلات العديدة حول مفهوم « جمهورية الريف ». أكان توصيفاً مؤقتاً لكيان استثنائي خلال ظرفية استثنائية، أم تجاوزاً « راديكالياً » للأنظمة السياسية المحافظة في الفضاءين العربي والإسلامي؟ أيّ كيانٍ كان الثوار الريفيون يصبون إليه في حالة هزم الاستعمارين الإسباني والفرنسي؟ ألم يكن محمد بن عبد الكريم الخطابي والحركة الثائرة الملتفة حوله، يعتبرون الوطن القطري المغربي، كما كان يؤسس له الوطنيون المغاربة، في النصف الأول من القرن العشرين، أفقاً ضيقاً؟ لم يعط عثمان بناني، في نصوصه المنشورة، إجابات قاطعة، بل اكتفى بإبراز الإشكال، وبسط تداعياته السياسية والاجتماعية، وما نتج عن ذلك من توترات مع قادة الحركات الاستقلالية بالمغرب الكبير.

التعاقب والتحقيب: كآليات منهجية لعلم التاريخ، تمكن من تبديد بريق السحر الذي يُنسج حول الفاعل التاريخي المتميز، والذي يحوله إلى رمز سام بل حتى إلى أسطورة.. بامتلاكه الجيد لهاتين الآيتين، يبدد عثمان بناني التصور المستقيم للتاريخ، واختزال شخصية تاريخية في ملامح ظرفية واحدة حتى ولو كانت استثنائية. هكذا يوضح المرحوم أن محمد بن عبد الكريم الخطابي، أشهر شخصية ريفية، كان في الواقع التاريخي شخصيات متعددة بل حتى متباينة. ففي كل مرحلة كان الرجل « خطابي آخر ». يرصد بناني أربع حالات وأربع مراحل.

من 1881 إلى 1920، كان محمد بن عبد الكريم الخطابي تابعاً لمواقف أبيه، ومنضبطاً لقرارات هذا الوالد الذي ينعتة بناني بـ « الوطني المستنير ».

من 1920 إلى مايو 1926، فنحن أمام « بطل معركة أنوال » أمير « جمهورية الريف » مبدع « حرب التحرير الشعبية »، « القائد الفذ المتميز الذي اضطر للاستسلام لوضع حد للدمار الذي كان يتعرض له الريفيون » يكتب بناني.

من 1926 إلى 31 مايو 1947، يسلط بناني الأضواء على محمد بن عبد الكريم الخطابي كأسير هادئ بجزيرة « الرينيون » عشرون سنة ويزيد قضاها هذا الرجل بعيداً عن السياسة وشعابها، لا هم له إلا قوت عائلته (40 نفرًا)، ومستقبل الذكور وزواج البنات.

من 1947 إلى 6 فبراير 1963، يرسم لنا عثمان بناني، صورة لشيخ عاد لعنفوان شبابه، شخصية تاريخية مبدجة بأمجادها، وطامحة للعب أدوار مهمة في مسيرة تحرير المغرب الكبير وساكنته. في هذه المرحلة، يكتب بناني، تبوأ محمد بن عبد الكريم مكانة « زعيم زعماء المغرب العربي » ونال من الزعيم المصري جمال عبد الناصر صفة « ضيف مصر الكبير » إلا أنه، بالرغم من تأسيسه وتروّسه « للجنة تحرير المغرب العربي » فإنه همش عملياً في سيرورة استقلالات بلدان شمال إفريقيا.

يوضح عثمان بناني أن ليس هناك استمرارية بين هذه الحالات والمراحل الأربع، بل الثابت هو القطيعة بين حقبة وأخرى. اعتمد عثمان بناني مقارنة الفعل السياسي للشخصية، وتجنب مقارنة البنية الذهنية والثقافية. ولو فعل، كان ربما، أثارنا عن المفارقة بين محمد بن عبد الكريم الخطابي قائد « ثورة الريف » المستنير، والطامح لتحديث الريف، ومحمد بن عبد الكريم، « ضيف مصر الكبير » المستبطن للقيم المحافظة والمتعاطفة مع حركة الإخوان المسلمين.

سمو المقاومة المسلحة على كل الأشكال الأخرى للفعل السياسي: لقد عايش محمد بن عبد الكريم الخطابي الجيل الذي تلقى بعنف صدمة الاستعمار وفقدان المغرب استقلاله،

وساير والده القاضي في التزام الهدوء وعدم مناصرة انتفاض أمزيان ضد الإسبان، وبالرغم من عدم وصول حركة الجهاد المسلح في الأطلس والصحراء، فإنه سيتدرج إلى اعتبار المقاومة بالسلاح أفضل طريق لطرد المستعمر وتحرير البلاد. سيتبلور هذا الموقف بشكل نهائي بعد معركة « أوبران » سنة 1921. وتأسيساً عليه سيحتفظ محمد بن عبد الكريم الخطابي من استراتيجيّة النضال الوطني السلمي التي اعتمدها الوطنيون المغاربة والمغاربة ابتداءً من ثلاثينيات القرن العشرين، وسيكون هذا الموقف هو القاعدة التي ستأسس عليها كل التوترات وكل التناقضات التي ستفجر بين الخطابي والقادة المغاربة من أمثال الحبيب بورقيبة، وعلال الفاسي، وعبد الخالق الطريس، وآخرين. ومن الطبيعي، في سياق هذا التعارض، سيصطدم الخطابي مع رواد النضال المدني السلمي واستراتيجيتهم التفاوضية القائمة على مناقشة استقلال كل بلد على حدة. هكذا سيقدم الخطابي تجزئاً مسألة استقلال « المغرب الكبير »، وسينتقد بشدة استقلال تونس ثم استقلال المغرب، متخوفاً من صفقات سياسية مع المستعمر الفرنسي، يكون ثمنها بقاء « الجزائر فرنسية ». لذلك سيصف قادة المفاوضات حول استقلال تونس والمغرب بـ « الخيانة العظمى »، وسيدعو المقاومين، حاملي السلاح إلى عدم السماح بنزع سلاحهم إلى حين استقلال الجزائر وجلاء كل القوات الأجنبية من تراب « المغرب الكبير ».

هذه بعض آليات الفهم التي بلورها عثمان بناني للإحاطة بالمسار التاريخي لآل الخطابي. وهي مستنبطة من المقاربة السياسية التي اعتمدها الباحث. لقد سبق لي أن حاورته، في رحاب المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، حول تعقيدات مسار محمد بن عبد الكريم الخطابي. وأطلعته على فرضياتي المندرجة في مقاربة تعتمد آليات « تاريخ العقلية » وأذكر منها اثنتين :

هيمنة المذهب المالكي بالفضاء المغربي أدى إلى استبطان مفهوم خاص للوحدة، ويتعلق الأمر بالوحدة الاندماجية. لذلك لما انتهى الحديث، عند الوطنيين على دول شمال إفريقيا الثلاث المغرب (مراكش) الجزائر وتونس، وبدأ الحديث عن الفضاء المغربي، سيرز مصطلحان، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية : الأول في باريس وهو « MAGHREB » والثاني في القاهرة وهو « المغرب العربي »، الأول يوحي بأن وحدة هذا الفضاء وحدة فدرالية، لا تنفي بلدان شمال إفريقيا كمعطى تاريخي. الثاني مؤسس على مفهوم الوحدة الاندماجية، كيان واحد، وشعب واحد، بل إن نعت المغرب بالعربي يدل على أن الكيان المغربي الموحد، مجرد مرحلة انتقالية نحو الكيان العربي الواحد. هذا التعارض، في نظري، ما يزال يعمل في عمق الوجدان والمخيال العام.

الفرضية الثانية، تتعلق بالعقلية المحافظة التي تشكلت في المدى الطويل، والتي لم ينل منها تدافع الزمن التاريخي إلا إرباكاً. لقد توفقت الأنتلجانسيات المغاربية المتعاقبة، منذ صدمة الحداثة الغربية، في تحقيق إبداعات على صعيد الممارسة السياسية، وأشكال النضال والمقاومة، و« الثورة الريفية » كانت إحدى هذه الإبداعات الكبرى. إلا أن هذه الأنتلجانسيات ترددت في إعادة صياغة الأسس الذهنية والثقافية للعقلية المستبطنة جمعياً. فارتبكت في بلورة منظومة قيم منسجمة وحداثية، ولم تتجاوز في أحسن الأحوال المقولة التوفيقية بين الأصالة والمعاصرة، وبذلك سهلت، في كل مرحلة، عملية إعادة إنتاج العقلية المحافظة. وهذا ما يشرح إلى حد ما، انتقال القادة والمنظرين السياسيين من المرجعيات « الثورية التقدمية » إلى المرجعيات « الإسلامية الأصولية »، وحالة محمد بن عبد الكريم الخطابي قد تشرح هذه الفرضيات.

سمعني المرحوم عثمان بناني، وابتسم بهدوئه الطبيعي، وأجابني بجملة كنت قد استعملتها سابقاً: « ثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي لم يكن لها غد، لكن لها مستقبل » رحمه الله.

هل كان محمد بن عبد الكريم الخطابي مناهضا لاستقلال المغرب ؟

بقلم : مصطفى بوعزيز¹

ترجمة : سناء بوزيدة

إن بطل حرب الريف محمد بن عبد الكريم يكون قد وقف ضد استقلال بلاده المغرب. تُستعمل الصيغة الشرطية هنا لتلطيف معلومة قد تصدم البعض. فمن الصعب أن نتخيل أن مثل هذه الشخصية الكاريزمية ورمز نضال التحرر الوطني، ليس في المغرب فحسب بل في جميع أنحاء العالم، تعارض بعنف استقلال بلدها! إذا ما هي المسألة ؟ توجد في الأصل وثيقة بعنوان : « بلاغ للشعب المغربي »، نُشرت في القاهرة في 2 جوان 1956 ووقّعت من قبل محمد بن عبد الكريم الخطابي² (انظر الصورة).

يتعلق الأمر في الحقيقة بلائحة اتهام قاس ضد حزب الاستقلال وخاصة قياداته وزعيمه. وقد اتهم الحزب بـ « نشر الأفكار الفاشية »، والعمل على « إقامة نظام ديكتاتوري والتحالف مع العدو، ولكن قبل كل شيء، تحويل جيش التحرير المغربي عن مهمته الحقيقية، المتمثلة في محاربة المستعمرين بالسلاح، واستخدامه في الحرب بين الأشقاء التي يشنها حزب الاستقلال ضد الوطنيين الذين لا يشاركونه أفكاره ولا يؤيدون سياسته ».

هذه الوثيقة تفاجئ لأكثر من سبب :

- صدرت في بداية جوان 1956. نُصّب السلطان سيدي محمد بن يوسف ملكا على المغرب بعد عودته الظاهرة من المنفى في 16 نوفمبر 1955 وهو الذي سيتحكم في مصير المغرب وليس حزب الاستقلال.

1. أستاذ تاريخ بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء.

2. انظر الصورة في الملحق.

- لم يكن الزعيم علال الفاسي، الذي تعرض لهجوم عنيف في هذا البيان، يقود بشكل فعال حزب الاستقلال. كما أنه لم يكن راضيا عن طريقة سير المفاوضات من أجل استقلال البلاد. كان يندد بالاستقلال المبتور. في ذلك الوقت، لم يكن قد التحق بالرباط حيث كان يقيم الملك. كان يمكث في طنجة، ومن تلك المدينة نشر خريطة المغرب التاريخي وأعلن أن الاستقلال لن يكتمل حتى يستعيد المغرب جميع أراضيه.

- كان جيش التحرير المغربي، الذي نشأت مؤسسته الرسمية في مدريد عام 1955، وكانت قواعده التدريبية في المنطقة الشمالية وقادته قرييون جدا من حزب الاستقلال، كان هو الجيش نفسه الذي ناهض محادثات إيكس - لي - بان وكانت انتقاداته لمفاوضات الاستقلال هي الأشد ضراوة.

- لم يكن محمد بن عبد الكريم الخطابي يعبر عن موقف ضد الملكية المغربية. ويكون قد أدان، في بيان، احتفظ به الوطنيون التونسيون، إدانة شديدة عملية نفي السلطان سيدي محمد بن يوسف في أوت 1953.

هل الوثيقة مزيفة؟ هذا ما يعتقده غالبية الوطنيين الأحياء، أولئك الذين يتطلعون إلى تشكيل مثالي للذاكرة الجماعية ... لكن التاريخ لا يتعلق بالتطلعات.

إن الوثيقة موجودة منذ عام 1956، وهي جزء من مجموعة محفوظة في أرشيف مركز الشرطة المشؤوم في الدائرة السابعة بالدار البيضاء. هذا المكان الذي تم فيه سجن مجموعات من الوطنيين بعد استقلال المغرب. وكان مكانا للتحقيق والتعذيب وتصفية الحسابات المختلفة بين شركاء النضال ضد الاستعمار.

كان مركز الاستجواب هذا رسميًا، وكان التحقيق في القضايا يتم باسم الدولة المستقلة حديثًا. إن الوثيقة التي يُزعم أنها وقعت من قبل الخطابي هي إحدى الوثائق في قضية « مصدرها ريفي »³. فحسب هذا الملف، كانت هناك شبكة ريفية تحيك مؤامرة ضد الدولة وتدعي أنها تابعة لبطل أنوال. كان بيان 2 جوان 1956 وثيقة دعوى ضد المتهمين. هل يمكن أن يكون اختراعا بوليسيا؟ قد نعتقد ذلك، ولكن ... هناك بعض الحقائق المزعجة:

- كانت فصائل من حزب الاستقلال متورطة في عمليات ابتزاز وتصفية جسدية لأشخاص يشتبه في « تعاونهم مع العدو ».

3. انظر الوثيقة في الملحق.

هل كان محمد بن عبد الكريم الخطابي مناهضا لاستقلال المغرب؟

- كانت هناك اختلافات في وجهات النظر بين الخطابي وعلال الفاسي منذ تعايشهما في القاهرة.

- يبدو أن التوقيع على البيان هو توقيع الخطابي.

ماذا نستنتج؟

تشير تحقيقات خط اليد من قبل المؤرخين المتخصصين إلى أن التوقيع هو توقيع شقيق بطل الريف، مُحَمَّد⁴. وكان لدى هذا الأخير تفويض التوقيع من أخيه.

تكمّن جذور المشكلة، بعيدا عن الكلام المفرط، في نزع سلاح وحدات جيش التحرير المغربي بينما كانت الجزائر لا تزال محتلة من قبل فرنسا. لم يتم الكشف عن تاريخ هذا الجيش بما فيه الكفاية، ولكن يمكن القول بالفعل أنه كان تابعا إلى قيادتين:

إحداهما مقرها في تطوان يندرج نضاله في استقلال المغرب أولاً، والتنسيق قدر الإمكان مع جيوش التحرير الأخرى في الجزائر وتونس⁵. والأخرى في القاهرة، يترأسها الخطابي وتقدم نفسها على أنها « جيش تحرير المغرب العربي » الذي تعتبر جيوش الدول الثلاث مكوّنة من مكوناته فحسب.

هل كانت قيادات الأركان تعيش حالة طلاق لأنه، على الرغم من اختلاط قوات قواعدهم، إلا أن أفعالهم وخطاباتهم كانت تميل إلى العنف والطائفية. لم يكن محمد بن عبد الكريم الخطابي ضد استقلال المغرب، لكنه كان يؤيد الاستقلال التام للمغرب العربي، وفي الوقت نفسه، يؤيد ولادة دولة واحدة في المغرب الكبير. كان يخشى أن يكون لاستقلال تونس والمغرب ثمنا سياسيا وأن تكون نتيجته تكريس الجزائر الفرنسية.

هل كانت قيادات الأركان تعيش حالة طلاق لأنه، على الرغم من اختلاط قوات قواعدهم، إلا أن أفعالهم وخطاباتهم كانت تميل إلى العنف والطائفية. لم يكن محمد بن عبد الكريم الخطابي ضد استقلال المغرب، لكنه كان يؤيد الاستقلال التام للمغرب العربي، وفي الوقت نفسه، يؤيد ولادة دولة واحدة في المغرب الكبير. كان يخشى أن يكون لاستقلال تونس والمغرب ثمنا سياسيا وأن تكون نتيجته تكريس الجزائر الفرنسية.

4. انظر الصورة في الرسم التوضيحي.

5. انظر في هذا الصدد:

L'Armée de libération du Maghreb (1948-1955), Actes de la rencontre de la Fondation Mohamed Boudiaf, ssl. dir. Daho Djerbal ISBN 9947-0-0358-2.